اقرأ

حسن محمود

الجدّة الصّغيرة

دار المعارف بمصر

الجدّة الصّغيرة

حسن محمود

الجدّة الصّغيرة

اقرأ

١٢٨

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٨ — أول أغسطس ١٩٥٣



١

السفر

قد يكون السفر من القاهرة إلى الإسكندرية أمراً عاديا لدى الذين اعتادوه : فما هو إلا الوصول إلى ذلك البناء الكبير على الطراز العربى الذى هو محطة القاهرة منذ أنشئت السكك الحديدية ، وما هو إلا أن يذهب المسافرون إليه فى أسرع وسائل النقل التى يعرفونها ، وكانت فى العهد الذى نكتب عنه المركبة التى يجرها جوادان إذا كانت بالأجرة ، وجواد واحد إذا كانت ملكاً للمسافرين ، وما هو إلا أن يتغلبوا على ذلك الحشد من الحمالين الذين يهجمون على المركبة كما يهجم الباشق على فريسته ، أو يغلبهم هذا الحشد ، فتحمل من بين يديهم ، إما بالرضا وإما قسراً ، تلك الأحمال المختلفة التى يتزود بها المسافرون ، وهى عادة حقائب من الجلد ، إذا كان المسافرون من ذوى اليسار ، وأحياناً حقائب من القماش تحشى فيها الملابس حشواً ، ويسير الحمال مسرعاً ، حتى ليكاد يغيب

وسط الزحام عن أنظار صاحب الأحمال ، ثم بعد لحظة يضع الحقائب في مكان خال ويطالب صاحبها بأجره قبل أن يستطيع المسافر أن يجمع نفسه . فإذا نقده أجره مهما كان كبيراً فهو لابد متذمر ومطالب بالمزيد . فإذا وجد إصراراً من المسافر انصرف صاخباً متذمراً وحينئذ ينزوى المسافر فى مكانه وتعود الأمور إلى طبيعتها وتعود الرحلة عادية لمن اعتاد كثرة السفر .

أما ما يتلو ذلك من عجلة المسافرين أمثاله ومن صخبهم ومناقشتهم مع الحمالين ومن قذف أحمالهم فى أمكنة خالية أو نصف خالية فهو أمر لا يعنيه . فلقد ردت إليه نفسه بعد أن جلس إلى مقعده وهو لا ينتظر غير الجرس يقرع إيذاناً للمودعين كى ينزلوا عن القطار بعد أن يحيوا أصدقاءهم ، وإيذاناً للمحب كى يقبل حبيبته القبلة الأخيرة ، وإيذاناً للأم كى تخرج منديلها لتمسح به دموعها التى بدأت تتناثر من لوعة فراق ابنها أو ابنتها . ولا ينتظر غير ذلك الصفير الطويل الذى يؤذن بتحرك القطار ومبارحة المسافر المحطة أو مبارحة المحطة له . وبعد ذلك بيوت ثم أكواخ تمر على ناظريه بسرعة مبتعدة عنه فإذا به فى تلك الحقول الخضراء التى تمتد إلى مرمى النظر ، وهى تسير مسرعة مبتعدة عنه لا تلوى على شىء ، وهى متكررة

متكررة لا يتغير منظرها ، ولذلك لا بد للمسافر فى هذا الطريق أن يملها بعد حين ويجد عنها شاغلا .

قد يكون ذلك شأن المسافر الذى ألف قطع هذا الطريق ولكنه لم يكن شأن كمال فى هذه الرحلة التى يمكن أن نعتبرها الأولى فى حياته . فقد كان كمال مسافراً لأول مرة وحده لا تصحبه غير جدته . وكان فخوراً بهذا السفر إلى أقصى حد . ولقد قطع هذا الطريق من قبل نحو ثلاث مرات ولكنه فى كل هذه المرات كان أحد أفراد الرحلة وأصغرهم شأناً . إذ كان يسافر فى صحبة والدته وأخيه الكبير وأخته التى تكبره . قطع هذا الطريق مرة فى الصيف ، وهو طفل محمول على كتف خادم . وليس من المعقول أنه كان كثيراً الانتباه لما رآه فى هذا السفر . وسافر مرة أخرى وفى الصيف أيضاً فى صحبة أسرته التى ذكرناها وكان يمشى على قدميه ، أجل ، ولكنه كان فى الخامسة من عمره . وهو يذكر تماماً أنه حاول أن يقف إلى النافذة ليتطلع للطريق فزجرته أمه وانتهى الأمر ببكائه ثم نومه فى حجر الخادم بحيث لا يمكن أن يقال إنه رأى الطريق . وسافر فى العام الذى يليه ولكنه كان بصحبة أسرته أيضاً . وابتدأ السفر بمشاحنة بينه وبين أخيه الكبير ، فأخذ أخوه طوال الطريق يعاكسه بألفاظ وإشارات نغصت عليه سفره ، ولم تفد

محاولة الأم وزجرها لابنها الكبير فى إيقاف هذا الابن عند حده . بل كان ينتهز فرصة التفات أمه إلى جهة أخرى فيقرصه أو يركله برجله مما جعل هذه الرحلة عذاباً له مقيما ؛ فلا يمكن أن يقال إنه رأى شيئاً من الطريق .

ولكن فى هذه المرة جاءت الجدة لزيارة ابنتها فى القاهرة وأقامت لديها شهراً وبضعة أيام وجاءت محملة بالهدايا من الإسكندرية وكان خير هذه الهدايا ما حملته إلى كمال الصغير الذى كان يتمتع بحبها خاصة . وبعد أن أمضت هذه المدة فى دار أهله أرادت العودة إلى دارها بالإسكندرية . فتعلق كمال بها وأبدى رغبة شديدة فى اصطحابها وكانت والدته لا تعتزم السفر إلى الإسكندرية فى ذاك الصيف . وكان كمال عندئذ قد ترك مدرسته الحرة استعداداً للدخول فى مدرسة حكومية . لذلك كانت لديه فرصة لتمضية الصيف فى الإسكندرية عند جدته وقد بلغ السابعة من عمره . وهو فى هذه السن قادر لحد ما على أن يسوس أمر نفسه فلم تمانع الوالدة وكان له ولجدته ما أراداه .

سار كمال إلى جانب جدته قاطعاً فناء محطة القاهرة وهو فخور مزهو وكان يمشى فى سرواله القصير مشية الرجل الكبير . وقد أمسك بيد جدته العجوز وكأنه يرى نفسه مسئولا عنها

وليست هي المسئولة عنه . وكانت هي فرحة مبتهجة وكأنها حذرت ما يجول فى نفسه . وكانت هى فخورة به تنظر إلى مظهر الحماسة فى مشيته وتتطلع إلى بريق عينيه واحمرار محياه لما تحملـّه من مسئولية على عاتقه . وسار بها إلى أن وجدا مقعدهما. وحينئذ جلس إلى جانبها هادئاً رزيناً لم يحاول فى هذه المرة أن يفعل فعلته فى المرات الأولى . حيث يقف على وسائد المقعد بقدميه . ولم يكن فى هذه المرة فى حاجة إلى ذلك . فقد طالت قامته ، طولا نسبياً إلا أنه طول ملحوظ . ثم كان يشعر أنه ليس من شيمة الرجال أن يقفوا على وسادة المقعد ليتطلعوا إلى المناظر التى تلوح لأعينهم من وراء نافذة القطار ، فما يفعل ذلك إلا الأطفال وهو لم يعد طفلا . ألم يعهد إليه فى حراسة جدته والسهر على راحتها كما ظن فى نفسه ؟

لذلك جلس هادئاً ، وإن فضل أن يتخذ المقعد الملاصق للنافذة . ولم تمانع جدته فى ذلك . فقد كانت الجدة تفهم بإلهام غريزى منحى أفكار ذلك الغلام الذى تحبه وتتعلق به آمالها . وهى بغريزتها الملهمة لم تمانع لأنها شعرت بأنه يمكن الاعتماد عليه . وهى تعرف هدوءه الطبيعى ، وتعرف فيه نوعاً من الرزانة ما دام على انفراد ، لا يعكر صفوه معاكسات أخ أو صديق .

جلس إلى جانبها جلسة الرجل وقد تدلت ساقاه وكان لا يستطيع غير ذلك . فإن هاتين الساقين لا يمكن أن تصلا إلى الأرض وإن وصلتا إلى نصف المسافة بين الأرض وارتفاع المقعد ، ولكن لم يكن هذا الأمر من ذنبه . وجلست الجدة إلى جانب صغيرها والحنو يكاد يطفر من عينيها .

وسار القطار فى حركته السريعة ونغمته المنتظمة وهو بين حين وآخر يرتعد رعدة خفيفة بينما الأشجار تمر بهم مسرعة ثم تتباعد سريعاً فى حفيف منتظم . وكانت تلك الخضرة الزاهية ، حتى لتكاد تنقلب إلى اصفرار الذهب ، تلوح ثم تغيب لتظهر لهم حقول أخرى خضراء زاهية . وكان هذا المنظر المتكرر الذى يألفه المسافر يبدو جديداً لعينى الغلام الذى لم يسافر قبل الآن معتمداً على نفسه . ثم بين حين وآخر يصل القطار إلى محطة من محطات المدن الكبيرة ، بعد أن يكون قد مر على محطات صغيرة فلم يأبه لها ولم يهتم بأن يخفف من سرعته فكأن هذه المحطات تغضب فهى تحثو التراب فى وجهه . فإذا وصل إلى إحدى المحطات الكبرى خفف القطار من سيره وسار وئيداً إلى أن تقف حركته ويستقر . وحينئذ ينزل عنه أفواج من الناس وتهجم عليه أفواج أخرى بين مسافرين يركبون القطار وبين باعة ريفيين ينادون على سلع أكثرها من المأكولات . أو

المشروبات، ثم يتحفز القطار للسير ويخرج صفيره المعتاد، ويعود هؤلاء الناس أشباحاً يتركها القطار أو هى تسير عنه مسرعة لا تلوى على شيء .

أمضى كمال الساعات الأربع التى قطعها القطار بين القاهرة والإسكندرية هادئاً رزيناً إلى جانب جدته ، يتطلع إلى ذلك العالم الجديد الذى يراه خلال النافذة ويسرح الطرف فى هذه المناظر الجديدة عليه . ولكنه بين حين وآخر ينظر إلى عينى جدته فيجدهما متطلعتين إليه مترقبتين من فوق نقابها الأبيض وهما تبسمان له . وقد برقتا حنواً وفرحاً . فكان أحياناً ينسى الصفة التى انتحلها لنفسه فيرمى برأسه بين أحضانها ، فتقبله من وراء النقاب ثم يعود إلى جلسة الرجل التى انتحلها لنفسه . وكانت تفتح حقيبتها الصغيرة بين وقت وآخر فتمد رجلَها بقطعة من الشيكولاتة أو من الحلوى التى جاءت بها لكى لا يحتاج إلى شراء تلك السلع غير النظيفة فى الطريق . وشعر بالعطش ذات مرة فأخرجت من هذه الحقيبة الصغيرة زجاجة بها ماء وكوبة فشرب حتى ارتوى .

كان ذلك فى شهر مايو ولم يكن الحرّ قد اشتد اشتداداً كبيراً فى القاهرة ، ولكن طراوة الربيع أو ما يسمونه الربيع انحسرت عنها . فلم تكن الحرارة شديدة على أهل القاهرة

ولكنها تعتبر شديدة لدى سكان السواحل . ولذلك ما قطع القطار الطريق وبلغ دمنهور ثم مرّ بها قاطعاً الطريق إلى الإسكندرية حتى تغير الجو . وبدأ نسيم البحر يهب عليه . وبدأ المسافرون يشعرون بهذا التغير وكأن ثقلا قد انزاح عنهم .

وبلغ القطار محطة الإسكندرية وكانت فى ذلك العهد محطة حقيرة لا تتميز عن محطات المدن التى مرّ بها القطار فى طريقه إلا بشىء من الاتساع . وأمسك الغلام بيد جدته ونادى حمالا ، وحاول بيديه الصغيرتين أن يساعد الحمال فى تناول الحقائب . ولكنه بالطبع عجز عن ذلك واضطر إلى العدول عن مجهوده . فضحك بعض المسافرين لمحاولته .

ثم نزل مع جدته وركبا عربة سارت بهما تخترق شوارع الإسكندرية المبلطة ببلاط كبير الحجم حيث قصدا منزل الجدة فى أحد الأحياء القديمة .

لم يؤثر أحد فى حياة هذا الصغير إلى ذلك العهد مثل جدته المحبوبة ، فقد نشأ الصغير بين والديه ولكنه لا يكاد يذكر أحدهما ، وهو الوالد ، ذلك لأن أباه كان رجلا متقدماً فى السن وكان كمال أصغر أولاده الثلاثة وقد تزوج هذا الأب من الأم وهو يصبح أن يكون والداً لها فالأم فتية فى شرخ الشباب بينما الأب بلغ سن الشيخوخة وإن كان لا يبدو عليه آثار الهرم

فقد احتفظ بشعر رأسه فى لونه الطبيعى ولم يفقد منه شيئاً وكان وجهه لا ينم كثيراً عن سنه فهو مكتنز باللحم ، حسن القسمات . وعيناه براقتان ولون الوجه الذى لوحته شمس الصعيد أسمر داكن مع ميل إلى الحمرة ، وكانت أسنانه تكاد تكون كاملة ، والحقيقة أن الأسرة خدعت فى سنه عند ما تزوج إلى إحدى بناتها . وكان شديد التأنق فى ثيابه فثوبه من خير أنواع الصوف الإنجليزى وأحذيته من صنع إنجلترا وقمصانه وملابسه الداخلية من الحرير ؛ وكان هذا التأنق الشديد فى الملبس يزيد فى خداع الناس عن سنه ولكن الزمن لا يرحم فما أن جاء ابنه الصغير كمال إلى هذا العالم حتى كانت الأمراض قد بدأت تؤثر فيه لا سيما أنه كان يحيا حياة جد قوى ولهو قوى .

وما أخذ كمال يدرك ما حوله من أمور حتى عرف ذلك الوالد ولكنه عرفه على أنه شخص يُحترم أكثر مما يُحب . ولم يكن الوالد غليظ القلب بل كان على العكس يفيض حناناً على أولاده ، فكان من عادته ألا يدخل الدار بعد الظهيرة حتى يكون قد حمل حلوى أو فاكهة تكدس للأطفال فلا تخلو الدار مطلقاً من نوعين أو أكثر من الفاكهة والحلوى والفطائر توضع لهم فى غرفة نومهم كى يطعموا منها كلما شعروا بالجوع فى لهوهم وعبثهم . ولم يكن كمال يشعر فى الحقيقة بما تنطوى عليه

تلك الهدايا الدائمة من حب وعطف فقد كان يظن فى تلك الفترة أنها أمر طبيعي لدى جميع الأطفال وأنها جزء لا يتجزأ من حياتهم ولذلك كان حبه لهذا الوالد مرتبطاً بهذه الفاكهة والحلوى التى تأتى إليه بلا عناء ، ولكن الشعور الغالب على نفسه هو شعور الاحترام لذلك الأب الذى لا يشهده إلا قليلا فيما بعد الظهر ، وكان يتهيبه . والواقع أن الوالد كان يفضل ابنته وهى الوسطى بين أبنائه الثلاثة ويؤثرها بعطفه فى المدة القصيرة التى يتاح له فيها مداعبة أطفاله . وكانت للصبية جرأة على هذا الأب فإذا احتاج أحد الصبيين إلى مطلب من المطالب فأقرب طريق إليه هو أن يسترضيا أختهما وقد يرشوانها بلعبة أو شىء من ذلك لكى تخبر أباهما ؛ ولا تتمنع الصبية أمام هذا الإغراء فهى بالرغم من عنادها ومشاحناتها مع أخويها رقيقة القلب عطوفة عليهما ، فما أن ترى أباها قادماً حتى تتقدم فى جرأة لم يكن يجدها الأخوان وتمسك بيده السمراء الغليظة فى يدها الصغيرة البيضاء البضة ، وحينئذ يجرها الأب معه إلى مقعده ليقبلها ثم تقبع إلى جانبه كالهرة الصغيرة وتحدثه تواً فى مطالبها أو مطالب أحد أخويها دون تردد بل تلتجئ أحياناً للهجة الآمر .

فصورة هذا الوالد إذن لم تكن مرتبطة لدى الصغير إلا

بهذه الألوان من الفاكهة والحلوى التى يعرف الوالد كيف يأتى بها من أكبر الحوانيت ، ومرتبطة بوقائع قليلة تافهة فى ذاتها وإن كان لها أثر هام فى نفس الصغير . فهو يذكر كيف أنه تقدم إلى هذا الوالد ذات مرة فى جرأة ليكلمه فى أمر غريب على الأطفال أن يتحدثوا فيه ذلك هو أمر مستقبله . وكان كمال عندئذ لا يكاد يتجاوز السادسة من عمره وقد تعلم القراءة والكتابة وتعلمها فى سن لا يستطيع تحديدها بالضبط ، وكأنه لم يتعلمها بل وجد نفسه وهو يقرأ ويكتب . لذلك وهو فى تلك السن فكر بعقله الصغير فى أمر مستقبله . فجاء إلى والده وقال له فى لهجة الجد « لقد فكرت يا أبى فى أمر دراستى ورأيت من واجبى أن أقترح عليك إلحاقى بالأزهر » وضحك الوالد لهذا الاقتراح ورحب به وربما عزم على تنفيذه. لأن تلك الفكرة وافقت هوى فى نفسه ووجدت وجيباً من عاطفته الدينية التى لا تظهر كثيراً إلا فى احتفاظه بصلاة الصباح دون باقى الصلوات . فهو رجل عاش مدنياً ولكنه من أبناء الصعيد . فهو قوى العقيدة وإن شغلته مشاغل الحياة عن القيام بالصلوات الخمس . ولكن الأم لم تكد تسمع باقتراح ابنها الذى وافق هوى فى نفس أبيه ، وبدت على الأب علائم الرضا عنه ، حتى تجهمت للصغير وللأب معاً فنظرت إليه بعينيها الزرقاوين وصاحت « أيكون

ابنى معمماً ؟ لن يكون ذلك أبداً ! » .

وهكذا انهارت هذه الفكرة وذهب الصغير ليفكر مرة أخرى فى أمر مستقبله . وكان الوالد قد جاء فى ذلك اليوم بنوع من الفطائر لذيذ حقاً هو فى مظهره تقليد للكمثرى وبلونها ولكن الطبقة الخضراء هى عبارة عن عجينة الفستق وجاء بها من محل مدام جيز . وقد بحلّت له هذه الفطائر اللذيذة اللغز الذى يبحث فى حله . فما أن شهد أباه بعد ظهر اليوم التالى حتى ذهب إليه للمرة الثانية فى جرأة وقال له « يا أبتاه لقد عارضت والدتى بالأمس فى أن أكون عالماً من علماء الأزهر فجاءتنى فكرة أخرى : إنى أريد أن أكون صانع حلوى »

وضحك الوالد ضحكاً طويلا متواصلا وكذلك فعلت أمه فلم يصر الابن وتركهما وشأنهما .

بعد ذلك اشتد المرض بالوالد فكان الأولاد لا يرونه كثيراً إلا لتحيته فى الصباح إلى جانب فراشه ، ولشدة حنوه يأمرهم بالانصراف للعبهم وعبثهم أو لدراستهم فما شأن الأطفال بالمرضى وكانوا هم من جهتهم أو على الأقل كمال أصغرهم لا يشعرون بخطورة ما ألم بوالدهم . وأدى المرض إلى أن تجرى للوالد جراحة ولكنه لم يبرأ من علته إلا قليلا ثم أجريت له جراحة ثانية مات أثنائها ، أو بعد ذلك بساعات قليلة .

إن كمال ليحتفظ بصورة اليوم الذى مات فيه أبوه . فقد نقل الأطفال قبل الإقدام على هذه الجراحة الثانية إلى منزل خالة لهم متزوجة من أحد الأقرباء .. وكانت تسكن فى حى بعيد عنهم بعض الشيء . وظل الأطفال عشرة أيام فى منزل الخالة يلعبون ويعبثون كأنهم فى دارهم . وكانت والدتهم تأتى كل يوم لزيارتهم ويسمعون أن أباهم مريض ولكنهم لا يقدرون خطورة المرض . وربما لا يتصورون شيئاً يأتى ذكره على ألسنة الناس ويسمونه الموت . فلم يجدوا ، أو على الأقل لم يجد كمال ، فى انتقاله إلى منزل خالته أمراً غريباً واعتبر هذه الأيام نزهة أو ما يشبه النزهة . ولم يكن حين يقابل والدته يكثر من السؤال عن الأب كما يفعل أخوه الكبير وبنوع خاص أخته الوسطى التى لا تكبره إلا بسنة ولكنها على الغالب افتقدت السيطرة التى كانت تتمتع بها .

فى أحد الأيام جيء بمركبة ودعى الأطفال للذهاب إلى منزلهم مع الخالة . وحدث قبل ذلك نوع من التراسل بين الدارين لم يعلم الصبي كنهه . وذهب الجميع فى المركبة وأغلب الظن أن الخالة كانت تعلم بخطورة حالة والدهم ، ولكن رأت الأسرة أو رأت الوالدة أن رؤية الأب لأبنائه قد تشد من أزر الأب فى صراعه للمرض وتدخل على نفسه من الارتياح ما يمكنه من

المقاومة وليس من المحتمل أنها فكرت فى أن يلقى الأب على أبنائه النظرة الأخيرة ، فإن شفقتها كانت تحول دون تعريض الأطفال لهذا الموقف. وقد يحتمل أن الأب أبدى رغبته وهو فى صراعه الأخير أن يرى الأطفال ، وكانت الأم لا تعلم باقتراب النهاية ولذلك وافقت على حضورهم .

وسارت بهم العربة حثيثاً . أما الخالة وبصحبتها الخادم ، فكانت واجمة يلوح عليها التفكير فيما هم ذاهبون إليه . وأما الأطفال فكانوا كعادتهم ينظرون إلى مشاهد الطريق ويتناقشون ويلغطون حتى إذا اقتربوا من الدار سمعوا عويلا فسكتوا وانقبضت نفوسهم الصغيرة توقعاً لشيء لا يعرفونه وحينئذ أمرت الخالة سائق المركبة بأن يلوى عنان خيله ويعود أدراجه إلى دارها .

وصل موكب الأطفال والخالة إلى الدار فى وجوم . ودخلوا فى سكوت مع خالتهم إلى غرفتها وهنالك طفرت الدموع من عينى الخالة فاندفع الأطفال يبكون ويعولون ولم يكن كمال يدرى تماماً ما حدث . ولكنه كان يبكى بكاء مراً غزيراً فأمسكت الخالة من دموعها فى جهد وأخذت تواسى الأطفال وتسكتهم . وأخيراً دعت خادماً كبيرة وأمرتها أن تعنى بالطفلين الصغيرين كمال وأخته وأخذت معها الأخ الكبير وخرجت عائدة إلى المركبة أما الطفلان فظلا يبكيان بعض الوقت والخادم تحاول أن

تسكتهما بالتدليه وبالألفاظ العذبة ثم أخذهما النوم فناما .

كان من المنتظر بعد هذا الحادث أن يكون الصغير كمال أقرب اتصالا بأمه ولكن هذا لم يحدث بل ظل موقفه منها أو موقفها منه كما كان من قبل ، ليس هو بأعز أبنائها إليها وإن كانت الأمهات تتعلق بأصغر بنيها عادة مدفوعة بعوامل الحنو الطبيعى لأن أصغر الأطفال هو عادة أضعفهم ، ولكن هذا لم يكن واقعاً فى هذه الحال فالأم تحب ابنها الأكبر أكثر مما تحب ولديها الآخرين . وكانت أمه بطبيعتها عطوفة إلا أن فى طباعها ما يحملها دائماً على أن تكبح مظاهر العطف .

كانت الأم عندئذ فى شرخ الشباب ولكنها أخذت تميل إلى البدانة . وليست البدانة ملائمة لها كثيراً إذ أنها أقرب إلى القصر منها إلى الطول . ومع ذلك فكان لوجهها بصفة خاصة جمال ورواء طبيعى . فهى قلما تزين وجهها بالأصباغ ووجهها أبيض ناصع البياض مشرب بالحمرة . وهو وجه مستدير متساوى القسمات والفم واسع بعض الشىء . وهو يدل لأول وهلة على أن الدماء التى تجرى فى عروقها ليست دماء عربية أو مصرية أصيلة ، بل كانت النظرة الأولى تدل على أنها منحدرة من أصل تركى وإن كانت لا تعرف من اللغة التركية شيئاً .

وكان شعر رأسها يزيد هذا الاعتقاد تأكيداً . فلم يكن أسود

ولم يكن كثاً مجعداً بل كان شعراً ناعماً بني اللون . وأبرز ما فى وجهها عيناها فهما عينان خضراوان صافيتان معبرتان عن عقل مفكر كثيراً وإن كان الفم لا يفصح . فكانت حياتها المنزلية مع ذلك الزوج المسن الذى انحدر من أسرة من الصعيد حياة مرضية وهى تحبه ، ولكن هل هذا الحب من نوع غير حبها لأبيها الذى توفى وهى فتاة ؟ كان مظهرها يدل على رضاها عن حياتها والزوج شديد العطف عليها يجيب لها جميع رغباتها لو أنها تفصح عن هذه الرغبات . ولكن الواقع أنها لا تفصح فهى قليلة المطالب ومع ذلك يتلمس هذا الزوج رغباتها تلمساً ويغمرها بهداياه فتظهر له ارتياحها وشديد شعورها . ولعلها تشعر بما يشعر به أطفالها إذ يغمرهم أبوهم بالحلوى فإنهم لا يشعرون إلا أن ذلك أمر يأتيه جميع الآباء ويكون فرحهم منصباً بأكثره على الحلوى . ربما هذا شعورها ، ولكنها تعرف أن من واجبها أن تشكر للزوج هداياه ، وفى الوقت ذاته تشعر بأن هكذا يفعل جميع الأزواج لا سيما إذا كانوا فى مرتبة الآباء . ولعلها كانت إلى ذلك الوقت لا تفرق بين العلاقة الزوجيـــة وبين علاقة الأبوة ، وهى تقبل الوضعين على أنهما مسألتان أقرتهما الشرائع ، ولكنهما فى كنه أساسهما مسألة واحدة . فالعلاقة مع الغريب تسمى زوجية ولا تفترق عن الأبوة فى

شيء ، والعلاقة مع الأب هي في أساسها علاقة من نوع العلاقة الزوجية . فهي إذ تزوجت هذا الزوج الذي اختارته أمها لها . والذي عرضت عليها أمها هل تقبل به زوجاً دون أن تراه إلا لحظة عابرة من وراء نافذة ، والذي لا تعرفه أمها إلا بقدر ما تحدث عنه الوسطاء ، لم تقبل هذا الزوج إلا لمجرد الشعور الطبيعي برغبة التغيير في حياتها . وهي إذ قبلته وعاشرته ورأت فيه طيبة ورعاية لها وحنواً عليها فأحبته ، وشعرت بأنها وجدت أباً بدل الذي فقدته . هذا هو نوع الحب الذي كانت تكنه لزوجها : حب قائم على عاطفة التعلق والاحترام .

وعند ما جاءت بأولادها إلى هذا العالم صارت تعنى بهم عناية كبيرة وتسهر عليهم تماماً . فهم يأكلون في موعد محدود ، ويغتسلون في موعد ، ويؤمرون بأن يأووا إلى فراشهم في موعد . وإذا مرض طفل منهم وجد أكبر عناية . فهي تلجأ إلى طبيب يوناني تثق به كل الثقة وتتبع تعليماته في دقة . ولكنها على غير ما ألف الأمهات في مصر لا تظهر لهم شديد الحنو . فقلما تقبل أولادها وكأنها تعتقد أن هذه القبلات خطرة على صحتهم . وإذا ارتمى أحد الأولاد عليها وأراد أن يقبلها في فمها تبعد فمها عنه ، وتكتفي بأن تتلقى قبلة الطفل على خدها أو رقبتها ثم تربت على خده وتدعوه في رفق إلى أن يتابع لعبه وينصرف

لشأنه . وكان الصغير كمال فى تلك الفترة يهبها احترامه وجزءاً من قلبه .

أما أكبر جزء من هذا القلب الصغير فكان هبة لجدته التى أخذت بعد وفاة الوالد تزداد اهتماماً بالأسرة . وإن كان اهتمامها قبل ذلك ليس بالقليل . غير أن إقامتها فى مدينة أخرى هى مدينة الإسكندرية يجعل من قدومها عيداً لدى الأطفال لا سيما كمال الصغير . وكان كمال يدين لها بدين لم يقدره فى ذلك الوقت وهو طفل ، والواقع أن الجدة كانت هى المركز الثقافى لهذه الأسرة إن صح هذا التعبير . فهى تأتى إلى القاهرة فى أشهر الشتاء عادة فإذا جاءت لا تكتفى بأن تقبع فى البيت كما تفعل الجدات ، بل هى دائمة الزيارات للأسواق تشترى منها أشياء ، إما للبيت وإما للأطفال . وكثيراً ما تصحب كمال فى هذه الرحلات حيث يرى أسواق الموسكى وهى غاصة بالناس كالنمال فى ذهابهم وجيئتهم . وهو يعلم أنه لا بد عائد بهدية لنفسه وأحياناً لإخوته أيضاً . فإذا أمسى المساء لا تقنع الجدة عادة بالبقاء فى البيت . فهى تؤجر دائماً فى هذه الأشهر مقصورة فى أشهر مسرح للتمثيل العربى فى ذلك الوقت . وهو مسرح قائم بشارع عبد العزيز حيث تمثل فرقة الشيخ سلامة حجازى . وفى هذه المقصورة ومن وراء ستار الدنتلا تشهد جميع مسرحيات

الموسم . ومن الطبيعى أن تذهب الأسرة بأكملها لتشهد التمثيل إلا إذا كان أحد الأطفال مريضاً فحينئذ يذهب الأصحاء وتتخلف الأم .

ولا يذكر كمال بالضبط فى أى شهر صار من مرتادى المسارح . وغاية ما يذكره أنه وهو صغير كان جزء من سرورهم بحضور الجدة إلى القاهرة ناشئاً عن توقعهم الاستمتاع بالذهاب ليلا إلى المسرح . وكان ذهابهم لا يقابل بارتياح كبير من الأم لأنه يتعبها بعض الشىء ، فهى تخاف من البرد على أبنائها . لذلك يذهبون فيما يشبه القافلة : تأتى المركبة فى الساعة الثامنة ليلا حيث ينقل إليها أمتعة هى عبارة عن مخدة ووسادة وغطاء وإناء ملىء بالماء وإناء فارغ ويحمل الخادم هذه الأمتعة إلى المركبة ، ثم يأتى الأطفال مصحوبين بجدتهم الباسمة . وهم فرحون برحلتهم الليلية وتأتى الأم صامتة وعلى وجهها ترتسم علائم التذمر . ويذهب الجميع إلى المسرح وفى العادة يكونون أول القادمين . وحيث أن الجدة تؤجر المقصورة للموسم جميعه فإنهم كانوا معروفين لدى خدم المسرح . وحينئذ يدخلون المقصورة ويفرش الفراش فى جانب منها وهو معد لنوم الطفلين الصغيرين إذا ما أخذهما النعاس .

ويذكر كمال ذات ليلة إذ ذهبت الأسرة إلى المسرح

وجلس على مقعده يراقب التمثيل بانتباه من وراء ستار الدنتلا . وكانت المسرحية هى إحدى مسرحيات ڤيكتور هوجو وسميت بالعربية البرج المائل . وهى المسرحية الوحيدة تقريباً التى لا يتخللها الغناء فقد كان الشيخ سلامة حجازى مغنياً قبل أن يكون ممثلا . ولذلك لجأ فى المسرحيات التى تنقل له إلى طريقة هى أن يتخللها شىء من الشعر ويلحن هذا الشعر وينشده . وأكثر الجمهور فى ذلك العهد يذهب لسماع هذا الغناء ولا يهتم كثيراً بالتمثيل ، ولذلك لم تكن هذه المسرحية مما يجد إقبالا كبيراً .

كان كمال الصغير شديد الانتباه للمسرحية فإذا به يرى رجلا كث اللحية يحمل فى يده مصباحاً لا ينبعث منه إلا ضوء قليل هو حارس البرج . وكان المسرح يكاد يكون مظلماً . فدخل على قلب الصغير الخوف وبدأ يبكى فى دموع غزيرة . ثم أخذ صوته يرتفع بالبكاء حتى كاد يشوش على التمثيل . فحملته أمه سريعاً إلى الممشى فى خارج المقصورة وسارت به حتى أطلت على سلم الخروج وهناك جاءها أحد الخدم فطلبت إليه أن يبحث عن خادمها .

وكان الخادم ذا علاقة وثيقة بالمسرح لأنه على سواد بشرته مولع بالتمثيل . فعرف كيف يوطد أواصر الصداقة مع الممثلين وينتهز فرص بعض المسرحيات فيظهر فى دور جندى ، أو أحد

أفراد الجمهور ، أو غير ذلك من الأدوار التى لا تحتاج إلى كلام . وما كانت لغته غير السليمة لتنفعه على المسرح لو أراد أن يعهد إليه فى دور . وقد ناداه خادم المسرح من وراء الكواليس فجاء وحمل الطفل وكان الطفل يركن إليه فسكت عن البكاء وسار به إلى خلف المسرح وهنالك هل تدرى من أول ممثل قابله ؟ إنه ذلك الرجل الكث اللحية الذى خاف منه وهو فى المقصورة وقد أمسك بالطفل وحمله وقبله . ولم يكن الطفل أقل خوفاً فى هذه المرة . إلا أن خوفه اقترن بالسكوت وكأن الخوف عقد لسانه . ولكن الرجل كان رقيقاً شفيقاً فجاء بمقعد وأجلسه بحيث يتمكن من رؤية ما يجرى فى المسرح ويتابع المسرحية . وبعد هنيهة ، حين ابتعد هذا الرجل المخيف طلب الطفل أن يعاد إلى جدته ومقصورته .

هذا حادث من حوادث طفولته الأولى فهو إذن لا يمكن أن يحدد تماماً متى كان اتصاله بالمسرح . ولا شك أن المسرح أوجد ميلا شديداً لدى الأطفال إلى تقليده فى منزلهم . وزاد من ميلهم هذا وجود ذلك الخادم الذى يشترك فى التمثيل . فإذا ما خلا الجو للأطفال الثلاثة بعض الأحيان بأن خرجت أمهم إلى زيارة ، ابتدأوا فى تمثيل مشهد من مسرحية إما يؤلفون فكرته اقتباساً مما يرونه أو يقتطعونه من مسرحية شهدوها . وكانت

أبرع الأعمال عندئذ يقوم بها ذلك الخادم الذى يتولى فى المنزل حينئذ الدور الهام ، إذ هو المخرج والمشرف على المسرح . فى حين أنه لدى مسرح الشيخ سلامة ليس إلا مجرد فرد يتمشى ولا ينطق . وأهم عمل يقوم به فى المسرح المنزلى هو نصب ستار يرتفع وينخفض كستار المسرح الحقيقى . وهذا الستار عبارة عن غطاء من الصوف الأحمر يأتون به من سرير أحد الأطفال ، وينصب بحيث يمكن رفعه . والفضل فى ذلك لحبال الغسيل وهكذا يمضى الأطفال فى عبثهم إلى أن يسمعوا خطوات الوالدة فيتكفل الخادم برد كل شىء إلى مكانه .

وحدث ذات مرة أن أخاهم الكبير قرأ ملخصاً لقصة عطيل فرواها لإخوته وقرروا تمثيل منظر منها ونصب الستار ولكنهم لم يتصوروا أن يقوم الخادم بدور عطيل . أجل إن الدور ملائم للونه ، غير أن الخادم كان نحيلا لا يمكن أن تبدو عليه ملامح الشجاعة كما يتصورونها . إلا أنه فى ذلك اليوم كانت لديهم ضيفة مقيمة هى تابعة الجدة . وهى فى الأصل من جوارى الجدة فلما أعتقت الجوارى ظلت فى البيت تابعة بل شريكة للسيدة . ولهذه الجارية وقار خاص وهى بدينة ومحترمة ، تحنو على الأطفال وتحبهم ، وهم يبادلونها الحب . فقر رأيهم على أنها خير من يصلح لتمثيل عطيل لما يبدو عليها من مظهر

الوقار والشجاعة وإن كانت امرأة . وذهبوا إليها وعرضوا عليها الفكرة ورجوها فى أن تجيب طلبهم . ولم تمانع هى بل أجابتهم إلى رغبتهم ضاحكة حيث رأت أن ذلك مما يدخل السرور إلى قلوبهم . واهتم الأطفال فى هذه المرة اهتماماً خاصاً ولذلك خلعوا أحد ستائر النافذة من الحرير الأحمر وأتوا بسيف قديم كان لوالدهم فتوشحت ممثلة الدور بالستار الأحمر وأمسكت بالسيف فى يدها . ولم يكن عليها إلا أن تكرر القول فى شجاعة لا يشوبها غير لكنة الجوارى عند النطق بالعربية وهى تهز السيف فى يدها وتصيح « أنا القائد المغربى ! أنا القائد المغربى ! » .

أما كمال ، فاقتنع بالأدوار الثانوية فى هذه المسرحيات المنزلية . وأكثر عمله أن يكون مشاهداً يجرى هنا وهنالك ، مناولا الخادم بعض الأشياء التى يتطلبها الفن ، أو حائماً حول أخيه الذى يتخذ لنفسه دوراً هاماً ، وينطق أحياناً بعبارات مبتدعة لساعتها وإن لم يكن فيها معنى كبير . وكان أخواه ينظران إليه من عل ، لتقدمهما فى السن عنه وفى التجربة . ولذلك يذكر أنه أراد أن يبزهما فعمد إلى تأليف مسرحية ووضع قسما من الحوار للمنظر الأول . ثم رأى بعد هذا النجاح الكبير أن يتلو هذا القسم على أخيه وأخته فتلاه فى زهو . وكان عندئذ لا يحسن رسم الحروف وكتب كلمات

حواره فى صورة عجيبة ، وقرأها قراءة عجيبة ، أثارت ضحك الأخوين ، واتخذا هذه العبارات وسيلة للسخرية به ومعاندته حتى اضطر لرفع شكواه منهما إلى أمه .

فالجدة إذن كانت العامل الأكبر فى ثقافة الأطفال والصغير منهم خاصة . ولم تكن الجدة مثقفة بالمعنى المعروف لدى الناس فهى لم تتلق دروساً إلا فى قصر أبيها ووالدتها من من معلمين قاموا بتثقيفها . وكانت فى تلك الأيام قد امتنعت عن القراءة فيما عدا الرسائل التى تأتى إليها من أولادها . إذ أخذت تشعر بضعف فى النظر اضطرها إلى استعمال نظارة عند القراءة ، ونظارة أخرى عند الرؤية من بعيد . ومع ذلك كان فى عينيها الخضراوين صفاء وسحر لم يؤثر عليهما مر الأيام ويحب كمال كثيراً هاتين العينين اللتين يفيض منهما الحنان والحب . ويحب أيضاً تقاطيع ذلك الوجه السمح الخالى تماماً من المساحيق . ولكن بشرته تكون أحياناً مشربة بالحمرة وأحياناً بيضاء ناصعة . وكانت الجدة قصيرة القامة وهى تتأنق فى لبسها بما يناسب الدور الذى اتخذته لنفسها أى دور الجدة . وإذا خرجت تلبس « حبرة » سوداء وتضع نقاباً أبيض غليظاً لا شفافاً كالنقاب الذى يستعمله بناتها . لأنها تتحاشى الأزياء الحديثة . وتفضل أن تستعمل الزى المألوف فى جيلها . وذلك إذا لم يكسبها

جمالا فهو يكسبها وقاراً .

وكثيراً ما سمع كمال نقاشاً بينها وبين والدته عند ما تكونان آخذتين فى تفصيل ثوب جديد للجدة . فالأم تعرض على الجدة أن تزين الثوب بزينة خاصة . فتأبى الجدة إلا أن يكون الثوب بسيطاً خالياً من الزينة بقدر الإمكان . وهى تتحلى بأبسط الحلى كخاتم من الماس فى يدها أو دبوس من الماس بسيط الصنع وأنيق يضم جانبى الثوب فى رقبتها . وهذه الحلى تجذب أنظار كمال بوجه خاص ويفضلها على حلى والدته كثيراً . ولعل ذلك بتأثير شعور فنى فى الصغير إذ كانت هذه الحلى مرصعة بأندر أنواع الجواهر .

ومما زاد فى ثقافة الجدة أمر غير مألوف بين سيدات ذلك العصر هو أنها مولعة بالسفر والسياحة وقد رأت ، على ما تقول ، فى شيخوختها وبعد أن تزوج بناتها ، أن ترى العالم ، أو العالم الذى تريد أن تراه . فقامت برحلات عدة ورأت الكثير من مدن البحر المتوسط . فذهبت فيه غرباً إلى بلاد تونس والجزائر ومراكش وفرنسا وشرقاً إلى لبنان وسوريا وتركيا . وهى تعجب إعجاباً خاصاً بالعاصمة التركية القديمة . ومن الطبيعى أن ترتاح إلى هذه العاصمة إذ أنها تحسن اللغة التركية بقدر إحسانها للغة العربية . فى حين أنها فى بلد مثل مرسيليا أو نابولى أو أثينا

يتعذر عليها التفاهم إلا ببضع كلمات وهى التى يتعلمها دائماً المحبون للسفر ، إلا أنها فى بلاد الأتراك ، فى أزمير أو إستامبول ، تستطيع التفاهم كاملا فهى إذن تتخذ هذه المدن مأوى لها لبضعة أشهـــر .

وكانت نفس كمال تنقبض حين يأتى والدته النبأ بأن الجدة سافرت فى رحلة . فإن هذه الرحلات تمتد أشهراً ولا يعلم بالضبط موعد عودتها . . فى حين أنها على إقامتها فى الإسكندرية يشعر أكثر الوقت بأنه لا يزال فى حماها . وكلما جاءت رسالة من أحد الأقطار البعيدة يجلس إلى جانب أمه فى لهفة ويتطوع أحياناً بقراءة الرسالة كى يسبق إلى الوقوف على محتوياتها . فإذا جاء النبأ بعزمها على العودة قريباً ابتهج ابتهاجاً شديداً لأن الجدة إذا عادت من رحلتها لا تمكث فى الإسكندرية إلا أياماً بقدر رؤية أولادها المقيمين بها ثم تأتى مسرعة إلى القاهرة لرؤية الأطفال ، ولرؤية الصغير كمال بنوع خاص ، وهى تحمل من الهدايا ما لا يرى فى البلاد المصرية إلا قليلا . فهذه أقمشة من الحرير الدمشقى النادر يمكن تفصيلها أقمصة للأطفال فاخرة يتباهون بها . وهذه أطباق من صنع إستامبول جميلة المنظر وهذه أوانى زجاجية اشترتها من نابولى إلى آخر الهدايا التى ترضى الغريزة الفنية فى نفسه الصغيرة .

وهى فى هذه الرحلات جميعاً تصطحب إحدى بناتها .
وعرف كمال أنه وهو طفل لا يدرك اصطحب فى إحدى هذه الرحلات مع أمه وأخواته ، وأنه عاش أشهراً فى لبنان وأزمير ولكنه لا يذكر من ذلك شيئاً .

وكانت الجدة عطوفة جداً على الأولاد وبها شىء من العناد . فهى تغضب لأقل إهانة تصيب طفلها المدلل ، ولو كان جديراً بهذه الإهانة . لذلك يصبح كمال لا يطاق عند حضور الجدة فى القاهرة . فيكظم أخوه وأخته غيظهما منه ويتوعدانه دائماً بالانتقام بعد سفر الجدة . وهو لا يتوانى عن الشكوى لجدته من أى عمل يأتيه الأخوان . فتتوسط الجدة فى الصلح بين الأطفال ويقبل الأطفال توسطها صاغرين إذ تنفحهم دائماً بالهدايا من اللعب والحلوى أو النقود .

كانت الأم تأخذ أحياناً على كمال حين تكون الجدة مقيمة لديهم أنه يخرج عن طور الآداب التى يجب أن يرعاها . فهو أحياناً يدخل المنزل دون أن يمسح حذاءه جيداً فى الممسحة. وهو أحياناً يجلس على الأريكة ماداً قدميه بطريقة لا يفعلها على الأقل فى غيبة جدته . فلا تلبث الأم أن تؤنبه على ذلك ، وإنما فى اقتصاد خوفاً من أن تغضب الجدة . وهى إذا غضبت تصر فى الحال على السفر هى وتابعتها . وإذا أصرت مرة فلا

شيء يثنيها عن تنفيذ عزمها ، ولا يستطيع أحد قط أن يثنيها عن السفر إلا كمال وتوسلاته .

وبعد أن أخذ كمال فى الإقبال على القراءة كان يحلو للجدة أن تطلب إلى كمال أن يقرأ لها الصحف أو يقرأ لها كتاباً من كتب القصص . والكتاب المفضل لديهما هو قصص ألف ليلة وليلة . فيجلس كمال إلى جانب جدته فى المساء ويأخذ فى المطالعة فيجد خير سميع فالجدة سريعة التأثر تضحك فى مواقف الضحك . ويبلغ بها التأثر أن تبكى أحياناً وتفيض دموعها . فيشعر كمال بزهو إذ يظن أن قراءته هى السبب فى هذا التأثير لا سرد القصة . وأحياناً يأخذه التعب من الجلسة فيضطجع ويضع رأسه على ركبتها لأن من عادتها إذا جلست على الأريكة فى المساء أن تضم رجليها تحت جسدها . فيضع رأسه ويأخذ فى التلاوة ويأخذه النوم أحياناً وحينئذ لا يشعر إلا فيما يشبه الحلم بقبلة حنان من جدته قبل أن ترفعه أمه فى ذراعيها لتضعه فى سريره .

تلك علاقة كمال بجدته العجوز فى الأزمان الخالية ، لا الزمن الذى يسافر فيه لأول مرة على انفراد مع جدته إلى الإسكندرية ، ومع ذلك فقد كانت تلك الأيام قريبة أكثر مما يتصور كمال فقد قلنا إنه سافر مع جدته وهو فى السابعة من عمره فهو لم يكن

قد سلخ فى هذه الحياة أكثر من سبع سنوات . وهذه الجدة التى يراها عجوزاً والتى اتخذت سمات العجائز لم تكن فى الحقيقة إلا فى منتصف العمر عندئذ فهى فى الثانية والخمسين من عمرها !

٢

دار فى الإسكندرية

أجل! هى المرة الأولى التى شعر فيها كمال بأهمية سفره إلى الإسكندرية وكان مقدراً أن يقيم فيها طويلا زمناً لا يحدد إلا بانتهاء الصيف القادم . والسبب فى أهمية هذا السفر أنه منفرد برفقة جدته العزيزة ، وسيحيا حياته تحت رقابتها بعيداً عن عينى الأم التى ترقب حركاته وسكناته فى يقظة وحذر لكى تنبهه إلى أى إهمال أوسوء تصرف من جانبه . أما هذه المرة فإنه تحت رقابة تلك العينين يملؤهما الحنو والعطف ، وإذا ما رفع نظره إليهما وجدهما ترنوان إليه وكأنهما تنبضان كما ينبض قلب الجدة الشفيق . فهو سيجرب إذن حياة لم يألفها من قبل . وهى حياة أشبه بحياة حبيبين استطاعا أن يتخذا لهما عشاً بعيداً عن أعين الرقباء يقضيان فيه شهراً أو بعض شهر .

وكان منزل الجدة عجيباً فهو يقع فى حارة صغيرة تتفرع من أحد الشوارع الوطنية الكبيرة فى جوار مسجد أبى العباس. هو منزل رحب يطل من الخلف على ساحة واسعة بها ضريح شيخ من المشايخ العديدين الذين بنيت قبورهم فى تلك الناحية إذ أن جامع أبى العباس كان فى الحقيقة مقبرته ومقبرة كثيرين من الأولياء والمشايخ وعظماء الإسكندرية. والعجيب فى أمر هذا المنزل أن كان به أيضاً قبر للجد الأكبر للأسرة. وإن خصت به حجرة منعزلة. لذلك كان الغلام على حبه لهذه الدار يجد نوعاً من الرهبة بحيث يحب دائماً أن يكون فى صحبة أحد إذا سار على السلم الذى يصل بين الطابق الأرضى والطابق الأعلى. ومما يزيد فى رهبته أن جارية جدته اتخذت غرفة صغيرة مؤلفة من انحناء هذا السلم فجعلت منها مخدعاً سرياً لها. لا تأوى إليه ولاتنام فيه، وإنما هو لأمر تعتقده وتعتقد فيه بعض الأسر. فهذه الجارية تجرى طقوساً مختلفة يرى فيها الدواء من أدواء عديدة تشكو منها بعض أفراد هذه الأسر، ولا يجد الطبيب لها علاجاً، أو لا يوفق إلى علاج. فهذه «الميانجا» كما تسمى بلغة الجارية الأصلية، وهى من أهل بورينو، كانت موضع خوف وخشية من الغلام.

وفيما عدا ذلك كان الغلام ينتظر وقتاً لذيذاً مليئاً بالعطف

ومليئاً بالحنان فهو يجد وجوها قديمة عزيزة عليه . غير أنه لا يجد رفاقاً للعبه ولهوه . فالبيت خال من الرفاق ممن هم فى سنه ولا يوجد فى بيت جدته الحبيبة ، غير خالة له فى مقتبل العمر لم تتزوج بعد . وهذه الخالة إن لم تكن بمنزلة الأم ، فهى ليست بمنزلة الأخت ، لأنها ليست صغيرة بحيث يسهل اللهو معها . وهنالك الجاريتان إحداهما تقوم بأعمال الطهى والخدمة . والأخرى رفيقة تزامل الجدة فى جلوسها وخروجها . وهى صاحبة المكانة فى الأسرة ، وفى غيرها من الأسر ، لما لها من القوة السحرية . .

هذا كل ما يجده كمال فى دار جدته ولكن الجدة لم تلبث أن حذرت حاجة الغلام إلى شيئين لا تستطيع هى أن تقوم بهما أولهما حاجته إلى الخروج ، ولا تستطيع الجدة الخروج فى كل يوم ، وحاجته إلى صحبة من هم فى سنه كى يلعب ويلهو بعض الشيء . ولذلك ما لبثت أن دبرت للغلام هذين الأمرين : أمر من يصاحبه فى خروجه للمحافظة عليه وأمر من يلعب ويلهو معــــه .

كان يتصل بالأسرة شيخ عجيب هو صاحب كتّاب لتعليم الصغار إلى جانب مقبرة ياقوت العرشى وهى لا تبعد عن مسجد أبى العباس إلا قليلا وهو رجل قصير القامة بدين ذو لحية كثة ، متصل بالأسرة منذ زمن . فهو فى الواقع معلم

لوالدة كمال وأخواتها ، علمهن القراءة والكتابة وشيئاً من القرآن وقواعد الدين . ولا نستطيع أن نقول إنه معلم كبير الاهتمام لعمله . ففيه نقيصة أساسية تحول دون إتقانه لهذا العمل . وهى حبه للمال وحرصه الشديد عليه . فكانت والدة كمال وأخواتها وهن فتيات يرشينه بالمال إذا عسر الدرس عليهن . لكى يخفف من غلوائه . ويسكت عن الدرس ويدعهن فى لهوهن ويكتم هذا العبث عن والدتهن . وفيه نقيصة أخرى هى نهم شديد وحب للحلوى ، فإذا أعوز الفتيات المال لا تعوزهن الحلوى . وقد استطاع هذا الشيخ أن يجمع مالا بحرصه وباتصاله بالأسر الكبيرة فابتاع منزلين صغيرين فى هذا الحى . وصار من الأثرياء إذا عد من يمتلك منزلين صغيرين ثرياً .

هذا الشيخ هو الذى رأت الجدة أن تعهد إليه فى مصاحبة الغلام إذا ما خرج . ولا ريب فى أنه كان راضياً عن مهنته الجديدة : مهنة « الدادة » لهذا الغلام فإن وراء ذلك ربحاً كثيراً ومشاركة فى الحلوى . ومما زاد فى فائدة هذا الشيخ أو سيدنا كما يناديه أهل البيت أن له غلاماً فى مثل سن كمال وحينئذ يستطيع أن يشارك كمالا فى نزهته ولعبه .

على أن سيدنا لم يكن أصلح شخص لهذه المهنة . أجل هو حارس وأمين بادى الاهتمام ولكنه ليس نشيطاً . فبدانته

الظاهرة تحول دون مساعدته للغلام فى ركوب الترام أو النزول منه . بل هو نفسه فى حاجة إلى من يساعده . على أن صحبة ابنه فى النزهات مما يوجد له هذا المساعد . ولا يصلح سيدنا أيضاً بذوقه الاختيار أماكن النزهة ، فهو يذهب بالغلام إلى مواضع ليس من رأى الجدة أن يذهب إليها . فكثيراً ما يقصد به إلى زيارة المساجد والأضرحة . وليس لدى سيدنا معلومات عن الأماكن وتاريخها أو عن النقش والبناء حتى تكون هذه الزيارة مفيدة . بل كل ما يفعله هو قراءة الفاتحة والتوسل ثم الخروج إلى مسجد آخر . وكان مطلوباً منه أن يقدم تقريراً شفهياً بالأماكن التى ذهب إليها مع الغلام فيتلقى تأنيب الجدة على هذه الزيارات لا لأنها ضارة فى ذاتها ، ولا لأن الجدة بعيدة عن الإحساس الدينى ، ولكنها شفيقة رئيفة بالغلام تود أن تدخل على نفسه السرور . ولا يمكن أن يدخل السرور مع هذه الأماكن المظلمة . وفى ذات مرة حاول سيدنا أن يغير من هذه النزهة بعد تأنيبه ، فذهب بالغلام إلى مكان للحاوى ، وهنالك أطعم الغلام مقداراً من البسبوسة طبعاً ، لا يمكن أن يعادل بما أكله سيدنا ولا بنصفه ولا بربعه . ثم لم يلبث أن عرج على محل آخر وهنالك سقى الغلام شراباً حلواً مليئاً بأنواع اللوز وجوز الهند والزبيب . فعاد الغلام إلى المنزل بعد ذلك وهو يشعر

بشيء من التوعك ، ولم يلبث أن ظهرت عليه أعراض التخمة . وتلقى سيدنا تأنيباً شديداً فى ذلك اليوم وتلقاه فى خضوع مكرراً قوله « لا حول ولا قوة إلا بالله » ولكن من الثابت أن سيدنا لا يهمه هذا التأنيب مطلقاً ، بل يفضل دائماً أن يلقى منه قسطاً كبيراً ، فكلما زاد التأنيب زاد العطاء .

الحقيقة أن سيدنا كان رجلا طيب القلب جداً ، وفيه جاذبية عجيبة تجذب من يتصل به إلى أن يحاول المزاح معه ، بالرغم من لحيته الكثة ومظاهر الوقار التى يصطنعها لا سيما فى وجود ابنه . وقد حدث أن خرج الثلاثة : سيدنا وابنه والغلام. وفى ميدان المنشية أرادوا ركوب الترام للذهاب إلى إحدى ضواحى الإسكندرية . وأخطأ سيدنا وهو قائد الرحلة اختيار الترام الذاهب إلى المكان الذى يقصدونه . فلما استعلم من العامل ونبهه إلى خطئه تعجل فى النزول، قبل أن يقف الترام فى المحطة التالية . وقفز الغلامان إلى الأرض أما هو فحاول أن يقفز ، فإذا جبته تشتبك فى عصاه ، وإذا به يقع على الأرض مرتمياً على وجهه . وكان بجبته الخضراء أقرب منظراً لضفدع كبير . فلم يتمالك الغلامان نفسيهما من الضحك ، وكان أكثرهما ضحكاً هو ابنه . وقام الشيخ من سقطته ينفض من ملابسه وهو محمر الوجه مغضب . وجعل يؤنب ابنه تأنيباً شديداً على سوء أدبه ، وهو أجدر باللوم

على تسرعه فى النزول وحضه للغلامين على القفز .

وكان كمال يحب سيدنا ويعطف عليه لا بالنقود ، فهو يستحى أن يقدم له شيئاً منها ، وحظه بعد منها قليل . كما أن سيدنا هو الذى يوكل بالإنفاق على كمال ويشدد عليه بأن يكون سخياً فى الإنفاق ، وأن يبتعد عما جبلت عليه نفسه من الشح والحرمان . وإنما كان كمال يحرص دائماً قبل خروجه للنزهة مع سيدنا على أن يملأ جيوبه بأنواع الحلوى . وهى متوافرة بالمنزل ، ثم يقدم لسيدنا كمية كبيرة منها وهم فى السير . كما يقتسم الباقى مع ابنه إن كان بصحبتهما . فيقابل سيدنا هذا بالدعاء . ويلتهم الحلوى التهاماً . والواقع أن الغلام فى عمله هذا لم يكن موفقاً فإنه يحمل أنواع الحلوى الثمينة لسيدنا . مع أن الشيخ لا يميز بين الأنواع ولو قدمت له قطع من السكر الخالص لالتهمها بنفس اللذة ، وربما بأكثر شهية من أنواع الشكولاتة والفندان .

وكان سيدنا من جهته، يحب دائماً أن يبسط سلطانه، ويبدى نوعاً من التفوق العقلى ، وهو بعد معلم للصبية . ، ولكنه إذ يتخذ هيئة الواعظ فى كلامه يبدو لأمر ما مضحكاً لدى الغلام ، كما بدا مضحكاً لدى والدته من قبل ، ولدى أفراد الأسرة جميعاً ولا يمكن تعليل هذا السر الذى يضعه الله فى بعض مخلوقاته . فكثيراً ما ترى رجلا فى سمات الشحاذين يمر بالشوارع والأزقة ،

فإذا الغلمان يرق قلبهم عليه . وترى آخر له هذه السمة يمر فى هذه الشوارع والأزقة ، فإذا غلمانها يعاكسونه ويسخرون منه ، ولا تعلم السبب فى ذلك . والظريف أن الذى يعامل بالعطف فى أحد الشوارع يعامل بالعطف فى الشارع الآخر . والذى يعامل بالسخرية فى أحدها يعامل بالسخرية دائماً فى كل شارع . وليس بين الغلمان رابطة أو اتصال ، وإنما هو شىء فى طبيعة الشخص لا يظهر دائماً فى حركته ، ولا يظهر دائماً فى مشيته ، بل هو جاذب عجيب يتصل بنفسيته ، يحمل هؤلاء الغلمان على السخرية أو الشفقة . وهكذا شأن سيدنا لدى هذه الأسرة : كلما ازداد وقاراً كلما هاج فيهم حاسة الضحك .

لذلك عندما أراد سيدنا أن تكون له السيطرة الكبرى على كمال بأن أخذ يحثه على اتباع قواعد الدين ، وأراد أن يلقنه الصلاة ، فشل فى ذلك فشلا ذريعاً .

ففى صباح أحد أيام الجمعة جاء سيدنا لزيارة الأسرة ، وقال إنه ذاهب إلى رمل الإسكندرية فهل يحب الغلام أن يصاحبه ؟ فكان له ما أراد وخرج الغلام مع سيدنا وابنه كعادته وجعلت تدور فى ذهن سيدنا فكرة الذهاب إلى شاطئ البحر فى رمل الإسكندرية ثم أداء صلاة الجمعة فى مسجد سيدى جابر وفى أثناء الطريق سأل سيدنا الغلام :

– ألا تحب أن تصلى معى فى المسجد ؟

– وهل يجب أن أصلى ؟

– قد لا يكون ذلك واجباً الآن ولكن خير لك أن تبتدئ

– لامانع عندى من الابتداء ولكننى لا أعرف ماذا أفعل.

– سأعلمك ذلك وعليك أن تفعل مثلى وسأعلمك الوضوء ثم الصلاة وهى صلاة الجماعة فى المسجد ، وبعد ذلك سأعلمك الصلوات الخمس !

وتم فعلا وضوء الغلام . ولكنه لم يفعل دون أن يبلل ثيابه . وتمت الصلاة ثم خرجوا جميعاً عائدين إلى المنزل .

ولسوء حظ سيدنا ، أصاب الغلام برد على أثر هذا الوضوء ، فما أن جلس إلى الطعام حتى ظهرت عليه أعراض البرد . وبالسؤال لم يستطع الشيخ أن يخفى السبب . وكان جزاؤه من التأنيب كبيراً على سوء فعلته ، وإن قصد إلى الخير .

على أن حياة كمال لم تكن كلها تضيع فى النزهة مع سيدنا ، فهذه هى النزهات الصغيرة التى تبتدع لكى لا يمل الإقامة . أما النزهات الحقيقية فبصحبة جدته وخالته ، يخرجون فى عربة تسير بهم إلى شارع شريف أو المنشية الصغرى حيث الحوانيت الفخمة للثياب وهنالك تشترى الجدة حاجاتها . ويكون كمال دائماً فى تطلع . لأنه يعلم حق العلم أن لا بد من شراء شىء له . فإذا

لم يكن من نصيبه معطف جديد أو بعض الثياب الأنيقة فهو على الأقل سيحظى من مكان الحلوى المجاور بعلبة مليئة بالشيكولاتة أو ربطة من الفطائر الصغيرة ، والإسكندرية عندئذ لا تقل عن روما أو ميلانو فى الحلوى والشيكولاتة ، فإن أصحاب هذه الحوانيت من الإيطاليين كما أن جميع ما فى هذه الحوانيت وارد من إيطاليا أو فرنسا .

وتمتد هذه الزيارات بعد ذلك بنزهة فى العربة ، إما إلى شاطئ البحر وإما إلى المتنزهات المحيطة بالإسكندرية . وفى هذه النزهة يقضى الثلاثة أو الأربعة إذا صحبتهم خادمتهم وقتاً لذيذاً . ويكون كمال موضع العناية والتدليل . وتكفى إشارة منه أو رغبة خفية لكى ينال ما يريد .

وكان للجدة ابنة متزوجة من طبيب فى المدينة . وهذا الطبيب رجل مرح يحب المزاح ويكثر من الحديث بعد أن يفرغ من عمله المرهق . وقد تصفه فوق ذلك بأنه عمل محزن . فما لا ريب فيه أن الطب عمل محزن ، إذ لا يعامل الطبيب إلا أناساً يجأرون بالشكوى ، وتحيط به الآلام دائماً . وخير يوم يمر به فى عمله هو اليوم الذى لا يشهد فيه وفاة شخص من الذين عالجهم . فالطب مهنة شديدة الوطأة على من يكون رقيق القلب شديد الحساسية . ولذلك إما أن يتعلم الطبيب القسوة .

وليس تعلم ذلك على الرجل الرقيق بالشيء الهين ، وإما أن يظل طول حياته معذباً متألماً يداوى حزنه بأن يحاول فى حياته الخاصة أن ينساه . ولعل ضحك هذا الطبيب وشدة إقباله على اللهو والمزاح فى غير عمله ، نوع من التفريج عما يراه من شقاء الإنسانية وآلامها . وكان لا يترك فرصة أو وسيلة من وسائل التسلية الممكنة ، حتى يدعو الجدة إلى مشاركته فيها . وكان أيضاً كثير التعلق بكمال حيث أنه لم يرزق ولداً .

ويذكر كمال حين كان طفلا أن حل موسم الكرنفال فى مدينة الإسكندرية . وهو موسم لم تعرفه القاهرة قط إلا فى حفلات خاصة . أما مدينة الإسكندرية فتحتفل به عندئذ احتفالا عظيما فى الشوارع ، ويشترك فيه أهلها من الأوربيين ، وأكثرهم يعيد بذلك ذكرى بلاده . ولما كان أهم سكان هذه المدينة من الإيطاليين ، فقد كانت حفلات الكرنفال تأخذ روعة حفلاته فى بلاد إيطاليا الكبرى مثل ميلانو والبندقية .

وفى ذات يوم جاء الطبيب إلى الجدة وقال لها إنه فى تلك الليلة سيكون موكب كبير للاحتفال بالكرنفال . ودعاها إلى أن تصطحب الصغير مع ابنتها إلى عيادته فى المنشية الكبرى حيث ينتظرهم مع زوجته . وحينئذ يلبس الجميع ثياب التنكر ليشتركوا فى الحفلات . ويكونوا أحراراً فى الدخول إلى الأماكن

المختلفة ، التى يغشاها الأوربيون ، ولا يمكن للسيدات المصريات أن يدخلوها . ولم تكن الجدة لتتردد أمام اقتراح كهذا تستطيع به التفرج على شيء جديد . إلا أنها أبدت اعتراضاً بأن ضيق الوقت لا يسمح بترتيب ثياب للتنكر .

فرد الطبيب على اعتراضها بأنه أعد كل شيء : فقد استأجر ثياباً من أنظف الأماكن التى تؤجر الثياب فى هذه الفرصة . واختار لكل واحد زياً . وليس عليهم إلا أن يحضروا فى المساء إلى العيادة وهو الذى يتولى تنظيم كل شيء .

وفى الساعة الثامنة مساء تناول كمال عشاءه فى لهفة ، لأنه يفضل الذهاب على الطعام ، وخرج هو وجدته وخالته الصغيرة فى عربة إلى عيادة الطبيب بالمنشية الكبرى . فقابلهم وقد انتهى من عمله ، ووصلت زوجته ، وبدأوا فى ارتداء الملابس ، وقد أعد لكمال ثياباً مزركشة هى ثياب مملوك صغير بعمامته المطرزة . أما السيدات فارتدى كل منهن ثوباً عجيباً . وهو يذكر أن جدته ارتدت ملابس شيخ جبته من الحرير الأحمر المزركش . على أن السيدات الثلاثة وضعن على وجوههن قناعاً يخفى معالم الوجه ، ولا ترى منه إلا العينين . ولبس الطبيب زى مملوك أيضاً ولم يضع قناعاً . وخرج الجميع وقد اتفقوا على ألا يتكلموا إلا هامسين حتى لا تعرف جنسيتهم .

وكانت ليلة عجيبة : فأولئك الآلاف من الناس الذين يلبسون الأزياء المختلفة ، وتلك المواكب التى لا تنتهى والعربات المزينة بالأزهار والورود ، وذلك الصخب والمرح والتراشق بالأزهار ، وتلك المشاعل التى يحملها أفواج من الناس ، وتلك الموسيقات التى تعزف وهى سائرة ، مما لا يمكن أن ينساه الغلام ، هى شيء أشبه بالأحلام التى تمر وتتابع أحياناً فى نومه . غير أن أكثر هذه الأحلام إذا ما تتابعت على هذه الصورة كانت مخيفة ، أما الآن فهى أحلام متنوعة فى صور ، بعضها ما يخيف ولكن تتبعه مناظر مرحة جميلة .

وهكذا أمضى الطفل ليلة عظيمة وسط هذا الضجيج والمناظر المختلفة ولم يشعر بأية رغبة فى النعاس مع امتداد الليل ، وهو ممسك بيد جدته الحنون من جانب ، وبيد زوج خالته الطبيب من جانب آخر . وقد دخلوا أماكن مختلفة تموج بالناس واشترى له الطبيب أنواعاً عجيبة من الحلوى وفى نحو نصف الليل ركبوا عربة وعادوا إلى دارهم حيث خلع كمال ملابسه بعد أن ظل وقتاً ينظر إلى نفسه فى المرآة والجدة إلى جانبه تنظر معه ثم تقبله ، وأوى إلى فراشه فنام نوماً هنيئاً لا تزعجه أحلام إلى اليوم التالى ، حيث قام من فراشه فإذا الصباح قد امتد ، وأشرقت الشمس منذ زمن بعيد .

وفى يوم آخر من تلك الذكريات الحلوة أخذه زوج خالته فى يوم عطلته إلى نزهة فى ضواحى الإسكندرية وقصد به إلى بعض الحدائق وقد ارتدى معطفاً لأن الجو كان بارداً ومع ذلك اشتد البرد عند غروب الشمس اشتداداً كبيراً حتى أخذت أسنان الصبى تصطلك وخشى عليه الطبيب تأثير هذا البرد ، فقصد به إلى حانة وسقاه كأسين متتابعين من خمر كونياك ، كما شرب هو نفسه شيئاً منه ، ثم ركب به عربة عائداً إلى المدينة . وكان للشراب الذى تجرعه الصبى تأثير سريع عليه . ودخل به زوج خالته متجر « شالون » ليشترى له قفازاً من الجلد . ولكن الصبى كان ثملا فصارت مشيته غير طبيعية . وتحدث الطبيب بالفرنسية إلى عاملات المحل ضاحكاً ، وهو يصف لهن ما حدث . وأقبلت الفتيات ، وكلهن جميلات فى شرخ الشباب . وأخذن يتبادلن تدليهه وتقبيله . وأتين له بقفاز جميل من الجلد الأصفر فلبسه وخرج به زوج خالته عائداً إلى المنزل ، بينما كان الغلام يبدى رغبة فى البقاء فى المدينة ، ويفضل لو أنه ظل بين تلك العاملات .

أما البحر فهو متعة لا تنتهى وله تأثير كبير فى نفس كمال ، وهو لا يشبع من الجلوس إلى جانب البحر يتأمل فيه ساعات طوالا ، يتفرج على تلك الأمواج التى ترتفع ثم تنخفض ، ثم

تضرب الشاطئ بزبدها في رفق أحياناً ، كأنها قبلة حبيب ، وفي قسوة أحياناً ، كأنها صفعة غاضب . وبين هذا وذاك تجد الرمال والقواقع تتحرك : إما متقدمة للقبلة وإما مدبرة هرباً من الغضب . وتجد ألوان البحر لا تنتهى . ومن قال إن البحر فى زرقة السماء فقد صدق ، ولكنه لم يقل كل الصواب . ومن قال إن البحر فى خضرة الزرع فقد صدق ، ولم يقل كل الصواب . فإن للبحر تحولا فى الألوان حتى ليتخذها جميعاً ويلبس منها حلة بعد حلة .

ولصوت البحر شأن آخر يختلف باختلاف حالته : فتارة هو تنهد ، وتارة هو زفير ، وتارة هو أنين ، وتارة هو زئير . وبين هذا وذاك تجد أنواعاً أخرى . ولذلك كان صوت البحر أكثر رخامة فى نفس كمال من تغريد الطير وتجاوبها على الأشجار . فهو إذ يصغى إلى صوت البحر وهدير المياه ، يسمع مجموعة من الأصوات كاملة ، لم يكن حينئذ يستطيع أن يجد لها شبيهاً ، فحظه من سماع الموسيقى إلى ذلك العهد كان قليلا . فهو لم يسمع أو لا يذكر أنه سمع غير صوت خالتـــه الصغيرة ، وهى تتغنى على آلة العود إذ تتعلم العزف على هذه الآلة الموسيقية ، وقد أتقنتها بعض الشيء . ولكنه عرف فيما بعد أن يجد للصوت شبيهاً فى تلك المجموعات الموسيقية

التى تتألف من الآلات المختلفة الأنواع ، منها ذات الأوتار ومنها ذات النفخ ،ومنها التى تدق . وما يعزف عليها من مقطوعات وضعها كبار الملحنين فى أوربا .

ذلك هو البحر عند كمال بلذته التى لا تفنى وتقلباته التى لا تمل . وهذا شأن المخلوقات الطبيعية فى تباينها مع مخلوقات الإنسان ، ففى الطبيعة لا تجد شيئاً يتكرر بنفسه فهذا الليل الذى يأتى بعد كل نهار ، لا تجده يشبه الليلة السابقة مطلقاً. وصفحة السماء التى نشهدها كل يوم ، لا تتكرر قط بل هى متجددة كل يوم فى ألوانها . قد يكون هذا التجدد مما لا تلحظه لأنك فى شغل عنه ولكنك لو لحظته كل يوم بعين المحب أو الفنان فلا بد أنك واجد اختلافاً فى كل يوم ، قد يكون هذا الاختلاف بسيطاً ، ولكنه اختلاف على كل حال ، يعطيك لذة متجددة لو كنت من الذين يتمتعون بنعمة الشعور بجمال الطبيعة . أما المخلوقات التى هى من صنع الإنسان فإنها تتكرر، وتكون فى تكرارها واحدة ، بحيث أنها إذا أشعرتك بمتعة، فلا يلبث أن تقل هذه المتعة لتكرارها ، وممارستك لها مرة بعد مرة ، بحيث يدخل إلى نفسك السأم .

كان كمال لا يمل الجلوس إلى جانب الشاطئ يتأمل مياه البحر ، ولم تكن هذه الفرصة لتتاح له كثيراً . فهو لا يترك

وحده إلا نادراً . وجدته أشفق من أن تتركه يخرج بغير صحبة . ولكنه استطاع مرة أو مرتين أن يختلس فرصة غياب مصاحبه، وهو ابن سيدنا ، إذ يريد الغلام العودة إلى داره لأمر من الأمور ، وحينئذ يلح عليه كمال فى أن ينطلق حراً ، يغيب كيف شاء ثم يواعده عند شاطئ البحر . ولم يكن البحر ببعيد ، فإن البحر يبعد عن داره ببضع عشرات من الأمتار . وهنالك يقف الصبي الصغير على شاطئ الماء حيث يجد متعته .

ويحب كمال أحياناً أن يداعب الماء بقدمه ، فيتقدم إذا ما انحسر الموج ، فإذا رأى الموج زاحفاً جرى إلى الخلف مسرعاً . وفى ذات مرة كان الموج أسرع منه فابتل حذاؤه من القماش الأبيض ، وجورابه فإذا ما جاء زميله خلع الحذاء والجوراب وظل وقتاً ما حافياً إلى أن يجف البلل .

وهكذا قضى كمال فى الإسكندرية زمناً سعيداً فى عشرة جدته الصغيرة ، يجد من الحنو أكثر مما عرفه فيها ، إذ كان كل الوقت حنواً عليه وعطفاً والجدة تتلمس أقل رغبة من رغباته . ولكنه مع ذلك لم يكن فى آخر الأمر راضياً كل الرضا . فقد افتقد شيئاً عزيزاً لديه هو صحبة أخيه وأخته ، وذلك اللعب الصاخب معهما . ومهما يكن ابن سيدنا كثير اللعب فإنه يحتفظ لكمال بنوع من الاحترام ، أو على الأقل

من الرعاية . أما أخوا كمال فلا يرعيانه بل يشركانه فى لعبهما ، وهما يظنان أن فى ذلك تنازلا بالنسبة لصغر سنه ، وضعفه عنهما . وكثيراً ما ينقلبان عليه ، ويتفقان على تحقيره ، لا لسبب إلا لأنهما أقوى منه . فينقلب اللعب معاكسات ومشاحنات ، تنتهى بأن يذهب الغلام إلى أمه شاكياً باكياً . فيكون حظ أخويه التأنيب ، ولا يسلم هو من التأنيب أيضاً ، لأنه مع ضعفه شاركهما فى العبث . ونتيجة هذا التأنيب قيام شيء من الحفيظة فى نفس الأخوين ، فينتهزان فرصة انفراده لمعاكسته ، وحينئذ ليس أمامه إلا طريقان : أحدهما العودة إلى الشكوى وقد تنتهى هذه الشكوى المتكررة بتأنيب الجميع ، وأحياناً تأديبهم ، والطريقة الأخرى أن يلجأ إلى الاسترضاء فيقدم إلى الأخوين شيئاً مما خص به من الحلوى دليلا وعربوناً على المصالحة .

افتقد الغلام هذا النوع من اللعب والعبث ، وافتقد الضجيج الذى يصاحب هذا النوع ، وافتقد الأفكار الجريئة التى يدبرها أحد الأخوين فى لعبهم .

ولربما افتقد أيضاً نوع الحب الذى يلقاه من والدته . وهو حب لا يتميز بالظهور والحنان البارز . وهو حب ليس عسلا كله كحب الجدة ، وهى ليست من الذين يغمرون أبناءهم

بالقبل . بل يظهر حبها بمظهر بسيط جداً بأن تربت على كتفه أو خده ، أو تقرصه قرصة خفيفة من أذنه . وهى لا تتردد فى تأديبه بعصاً صغيرة إذا ما أساء التصرف ، ولا تتردد أكثر من ذلك فى تأنيبه . ولكنها ترعاه بعين يقظة ساهرة فلا تسمح بأن تظل ثيابه قذرة ، أو أن يظل بغير طعام فى يومه . ولم تكن الجدة أقل يقظة من هذه الوجهة . ولكنها مع ذلك غفارة لذنوبه ، ولا تفكر مرة واحدة فى تأنيبه ، بل إذا أقدم على ذنب نبهته فى لطف ورقة . وهو لم يأت ذنباً مدة إقامته بالإسكندرية وهو فى هذه المعيشة ، وكلها رخاء ، بعيد عن صحبة أخويه ، فظل بعيداً عن تيار الذنوب . ولعل النفس البشرية مهما أوتيت من البراءة لا تحب هذا النوع من الفضيلة المستمرة ، بل تجنح إلى التزود بإتيان الذنوب ، بقدر جنوحها إلى التجمل بالفضيلة . ولعل هذه الفضيلة التى ظل كمال مجبراً عليها بحكم وحدته ، مما أثر بعض الشىء فى نفسه ، وأدخل عليها بعض الملل .

على كل حال فى ذات يوم كانت جدته فى جهة أخرى من الدار ، وجلس هو وحده فى غرفة ، وقد جاءته الجدة قبل أن تتركه بعشرات من صور الأسرة وأصدقائها ليتفرج عليها ويتسلى بها . فأخذ يقلب هذه الصور فيجد صور

أناس لا يعرفهم ، ووجد صورة لخالته المتزوجة وصورة لزوجها الطبيب ، ثم إذا به يعثر فجأة على صورة لوالدته . فأخذ يتأملها طويلا ورأى نفسه مدفوعاً لتقبيلها ، فإذا به يقبلها ، ويكرر تقبيلها فى شغف . وعادت الجدة لتطمئن عليه على أطراف أقدامها كى لا تعكر عليه صفو انفراده ، أو ربما ظنت أنه أخذه النوم ، فرأت ألا توقظه . فشاهدته وهو يقبل إحدى الصور ، فمدت يدها وتناولت الصورة فإذا بها صورة الوالدة .

وبوغت الغلام ، ولا يعلم لماذا أخذه شيء من الخجل . فنظر إلى جدته باسما ونظرت الجدة وهى تبتسم ابتسامة حلوة فيها شيء من الحنين ، وفيها مزيج من الأسف ، وقالت للغلام :

— ستكون غداً فى القاهرة .

٣

دروس

كانت أمينة هانم كتومة لا تكشف الستار عن مشاعرها . فهل هى موفقة فى حياتها أم أخطأها التوفيق ؟ لقد شبت فى بيت أسرتها ويمكن أن يسمى قصراً ، فاتساع غرفه الكبيرة وكثرة الجوارى والخدم والأتباع يدل على ما عليه الأسرة من ثراء . ولكن ظروف الحياة كانت فى الحقيقة تسير بالأسرة رويداً إلى الفاقة ، وإن لم تخسر مكانتها بين الأسر العريقة فى مدينة الأسكندرية .

رأت أمينة وهى لا تزال فتاة مظاهر هذا الثراء فى آخر أيامه . وشعرت بأنه يسير إلى زوال على أثر وفاة والدها ، وهو فى مقتبل العمر ، وبقاء والدتها وحيدة لا تحسن تدبير المال . وشعرت بأن الوصى عليها ، وهو رجل دين يعتقد فيه الوالد اعتقاداً شديداً ويتعصب له كل التعصب ، أخذ بطرق خفية ، يعمل على تحويل أموال الأسرة وأملاكها من يدها إلى يده أو يد أقاربه . وذلك بالتأثير على الوالدة ببيع أملاكها للنفقة على بعض القضايا التى تؤمل منها ربحاً مؤكداً . وقد يكون ربح

هذه القضايا مؤكداً لو وجدت من يهتم بها ويسعى لها ، ولكن رجل الدين لم يكن همه غير تحويل الأموال إلى يده . فأخذ يشجع الوالدة على بيع ملكها حتى انتهى الأمر بالأسرة إلى أن كادت تجرد من أموالها . واضطرت فى آخر الأمر إلى بيع ذلك القصر الكبير والانتقال إلى منزل صغير فى الحى القائم بجوار مسجد أبي العباس المرسى .

وكانت أمينة هانم وهى أكبر بنات الأسرة قد بلغت سن الزواج ، وهى سن مبكرة فى ذاك الزمن ، حين تقدم أحد الرجال عن طريق بعض أصدقاء الأسرة يريد لا خطبة الفتاة بل خطبة الوالدة .

وضحكت الوالدة لأنها تعتبر نفسها عجوزاً وإن كانت فى ربيع العمر وأبدت دهشة لمثل هذا الطلب إذ لم تتصور أن تفكر فى الزواج بينما أن لها ابنة تصلح له .

وألحف الوسطاء وطلبوا منها أن تشهد ذلك الرجل المتقدم للزواج وقالوا عنه إنه متقدم فى السن وقالوا عنه إنه سيكون نعم الأب لبناتها فنزلت عند إلحاحهم وقبلت أن تراه فى موعد خاص ، إذ يزور البيت ليشرب فنجاناً من القهوة بصحبة أحد آقارب الأسرة ، على أن تراه وهو مار من النافذة .

وتم ذلك . فإذا بها ترى رجلا أسمر اللون متوسط القامة غزير

الشعر أسوده يبدو عليه رواء الشباب .

وتكلم معها الوسيط بعدئذ ، فضحكت بأشد مما ضحكت فى أول مرة ، وعجبت كيف يطمع فى زواجها مثل هذا الشاب بدلا من التقدم لابنتها .

ونقل الوسيط هذا الكلام وعاد فإذا به يعرض الزواج من الابنة .

وحينئذ أخذ رأى أمينة فقبلت ، وكانت قد رأته مع والدتها ، ولكنها قبلت بدون ضغط وبدون حماسة .

ربما أنها أقبلت على الزواج إذ شعرت بأن الأسرة فى حاجة إلى من يحميها ويخلص فى حمايتها . وربما قبلت لأنها رأت فى ذلك مساعدة للأسرة فى حياتها المتدهورة ، أو أنها أحبت أن تجرب تغير حياتها بالزواج . ولم يكن للفتيات حينئذ من وسيلة لتغيير حياتهن غير هذه الوسيلة فلا تعرف الفتيات عندئذ طريقهن إلى المهن والحياة المستقلة . ولكنها قابلت هذا الزواج فى غير حماسة ، لأنه ليس فيه ما يوجب الحماسة . وكيف يراد من الفتاة أن تتحمس لرجل لم تعرفه إلا بنظرة من خلال نافذة ؟

وتم زواجها من هذا الرجل الشاب فى مظهره . والواقع أن الزواج لم يكن تجربة سيئة . فقد أحاطها الرجل بعناية كبيرة وحنو كبير . ولكنها اكتشفت فيه أمراً لم تكن تعرفه فقد بدا لها

من خلال النافذة شاباً كما بدا لوالدتها شاباً ، ولكن ظهر لها أنه ليس بالشاب الذى ظنته . وإنما هو رجل قطع مراحل الكهولة وأقبل على الشيخوخة بل اجتاز بابها . وإن احتفظ برواء الشباب. وكان يصلح تماماً بأن يكون زوجاً لوالدتها . وهو على الراجح فى سن والدها لو أنه لم يفارق هذه الحياة .

هذا الاكتشاف لم يؤثر فى نفسها أو ربما ترك أثراً خفياً لم تظهره . وكيف تظهره ، والرجل يعاملها بمنتهى العطف والحنو ويعمل على إجابة رغباتها ، ويحب أن تظهر زوجته فى خير مظهر . ولم تشعر أنها فقدت شيئاً مما تتمتع به فى القصر الذى عرفته أيام صباها ، وإن كانت تسكن معه الآن داراً صغيرة فى القاهرة .

ولكن أليس هذا العطف والحنو أمراً ملازماً لتقدم السن ؟ وهل لا يشعر الزوج الذى بلغ الشيخوخة بالحنو قبل أن يشعر بالحب ؟

هكذا عاشت فى كنف هذا الوالد الذى يحنو عليها كما يحنو على ابنته ، والذى تنظر إليه نظرة حب البنوة لا نظرة حب الزوج ، وإن كانت العلاقة بينهما علاقة الزوجية المحتومة .

وجاء أولادها إلى هذا العالم واحداً بعد واحد فجاء ابنها الأكبر بعد زواجها بثلاث سنوات . ثم ظلت فترة طويلة هى

خمس سنوات ، راضية بهذا الابن حانية عليه . ثم جاءتها ابنتها وتبعها غلام آخر فقامت تعنى بأولادها ، وتعمل على تربيتهم ، وزادت الأولاد من تقربها إلى الوالد ، ترى حنوه على الجميع ورعايته لأسرته فتزداد اعتماداً عليه . وهو قرير العين بهذا الاعتماد. ولكن الزوج يسير بقدم ثابتة نحو الفناء . وأخذت الأمراض تنتابه بالرغم من قوة بنيته التى خدعت الناس فى سنه حين أقدم على الزواج . ومع ذلك كان لا يكل من إحاطة أسرته بأنواع الرعاية والكد ، لكى يوفر لها أسباب الراحة ورغد العيش .

وكانت الأم أكثر تعلقاً بابنها الأكبر منها بأخويه . وهى تحبه وتعطف عليه عطفاً خاصاً ولعل انفراده بالبنوة مدة خمس سنوات قبل أخويه ، مما جعل الأم تؤثره بالعطف الشديد . وهو غلام نحيل الجسد يبدو فيه نوع من ضعف البنية . ولكنه مع ذلك عنيد لا يأبه لهذا الضعف فى بنيته ، فيألف الألعاب الخشنة . فكانت الأم شديدة الخوف عليه . وكثيراً ما يعود من اللعب بجرح دام ، أو آثار سود من الدم المتعقد ، فيكون نصيبه العناية البالغة والتأنيب البليغ .

ولما كبر هذا الغلام أخذت قامته تميل إلى الطول ، ولكنه ظل نحيلا جداً . وألحق بمدرسة ابتدائية ، وأخذ يتلقى الدروس سنة بعد سنة ، ولكنه لم يظهر أى تفوق فى دروسه ، وكان يعيد

أكثر سنى الدراسة . فإذا وصل إلى السنة النهائية فى الدراسة الابتدائية . وجد فى الامتحان عقبة كؤوداً فأخفق فيه مرة بعد مرة .

لذلك رأى الوالد حاجة ابنه لمعونة خارجية ، فضلا عن الدروس التى يتلقاها فى المدرسة . وقدر أن لا بد له من معلم يراجع معه دروسه فى المنزل ، أو على الأقل يحجزه وقتاً ما بانتظام ، لكى يراجع هذه الدروس . فلم يكن هذا الكسل البادى على الغلام ناشئاً عن غباوة الفهم ، بل سببه على الأرجح انصراف ذهن الغلام إلى اللعب والتفكير فيه ، والرغبة عن دروسه.

وقامت مشكلة اختيار المعلم ، وحلها الغلام بنفسه . ففى أحد المساكن المجاورة شاب من أبناء الصعيد فى نحو العشرين من عمره جاء إلى القاهرة والتحق بعمل حكومى صغير وهو يحاول أن يحصل على إجازة الدراسة الثانوية بالمذاكرة ليلا . ويعتمد هذا الشاب على نفسه وعلى مرتبه الصغير . ويرجو أن يجد عملا لا يرهقه ، يزيد قليلا من دخله .

كان الغلام يحب لعب كرة القدم . وقد ألف بالرغم من صغر سنه جماعة لهذه اللعبة من أولاد الجيران ، ينتحون ناحية فى بعض الأراضى الخالية المجاورة ، ويأخذون فى اللعب والضجيج . فيأتى أحياناً هذا الشاب للتفرج عليهم ، ويشترك

معهم أحياناً ، فنشأ بين الغلام والشاب نوع من الصداقة على تباين سنهما . وكانا أحياناً يتجاذبان الحديث . وعلم الشاب من الغلام أن أباه يبحث له عن مدرس ، فعرض على الغلام أن يكون مدرسه ومراجع دروسه ورحب الغلام بتلك الفكرة وأسرع إلى والده يخبره بأنه يفضل أن يتلقى دروسه على يد الأستاذ وفيق .

وتم ذلك وبدأ الشاب يتردد على الدار . وكان شاباً مهذباً فارتاح إليه أهل الدار وشمله الوالد بعطفه. وتقدم الغلام على يديه فى دروسه . فهو لم يكن غبياً كما قدمنا ، وإنما ينصرف عن دروسه . وعرف الأستاذ وفيق كيف يسقيه مرارة الدروس على جرعات . فهو يتحدث إليه ويتبسط فى الحديث عن لعب الكرة مثلا ، أو غير ذلك من الألعاب التى تميل إليها نفس الغلام ، ويشاركه أحياناً فى اللعب بالآلات الميكانيكية أو بنماذج السكك الحديدية وهو بعد على أنه معلم لا يزال شاباً فى مقتبل العمر .

وكان وفيق طويل القامة لكنه نحيل الجسم أسمر اللون كأنه قطعه من البرنز متساوى قسمات الوجه ، بل هو جميل الصورة جداً لمن يتأمل وجهه ، إلا أن فى عينيه عيب هو نوع من الحول . على أن بهما بريقاً بحيث لا يكاد يبدو هذا الحول منفراً .

أخذ مركز وفيق يزداد أهمية فى الدار ، بازدياد إقبال الغلام على دروسه . وصار كثيراً ما يدعى للعشاء مع تلميذه ، فيجلسان إلى المائدة معاً فى الغرفة المخصصة لدروس الغلام ، وحينئذ لا يكون الحديث إلا حول البندقية التى اشتريت للعب بها أخيراً ، أو الكرة الجديدة التى تمكن الغلام من شرائها بما يعطى من نقود شهرية .

واستطاع الأستاذ وفيق أن يبث فى الغلام شيئاً من حب المطالعة . فبدأ يواظب على قراءة الصحف العربية . ويشترك فى بعض المجلات الإنجليزية الشهرية . ويقتنى منها مجلتين مليئتين بالصور ، ويظهر أنه يفضل الصور على القراءة . وأخذ يجمع مجموعة من الكتب الإنجليزية . ولكن من الراجح أنه لا ينتفع بها ، بل يجمعها حباً فى الظهور بمظهر من يقبل على القراءة . ولكن المعلم يستفيد من هذه الكتب لأنه كثيراً ما يستعيرها من تلميذه . ومن المفهوم أنه لم يقدم على إعطاء الدروس إلا لضيق يده . ولعله استطاع أن يوفر بهذه الطريقة نقوده لمطالب الحياة . ويستمد مطالب العقل بحث تلميذه على شراء الكتب التى يريد قراءتها .

وكانت الأم تحرص حين يتلقى الغلام دروسه على أن يسود المنزل الهدوء . فهى تحول بينه وبين عبث أخويه . ولذلك منع

الأخت والأخ الصغير من دخول الغرفة فى أثناء الدرس . والحقيقة أنهما لو تركا لنفسيهما لما ترددا فى معاكسة أخيهما أثناء درسه . فقد كان أخوهما كثير المعاكسة والمعاندة لهما ، أو كثير المعاكسة والمعاندة لكمال بنوع خاص ، لأن الأخت كشأن النساء تنضم إلى الجانب الأقوى لتتقى شره . وفى جلوس الغلام أمام معلمه فرصة للانتقام بمعاكسته ، حيث لا يستطيع أن ينهض تاركاً المعلم ليقابلهما بلكمة مثلا ، وفى هذا الوقت يكون الغلام هو الضعيف ، ولذلك تنضم الأخت للصبى الصغير . فإذا حل الدرس أخذ الأخ والأخت يحومان حول غرفة الغلام ، وأكبر أمنية لهما أن يعكرا صفو خلوته لدروسه . ولكن عين الأم اليقظة ترمقهما شذراً فيكفان ويتباعدان .

ويظل هذا حالهما طول مدة الدرس ، فهما بين وقت وآخر يقتربان من الباب فتلقى عليهما نظرة عابسة فيرتدان إلى غرفة أخرى ، حتى إذا ما فتح باب غرفة الدراسة وأعلن انتهاؤها ، هجم الصبى والصبية على الغرفة ، واستطاع الغلامُ أن يقابلهما بالضحك والمداعبة ، أو السخرية والملاكمة ، حسب العلاقات القائمة بينهم فى ذلك اليوم .

وابتدأ كمال وأخته يألفان أيضاً الأستاذ وفيق لاسيما حين لاحظا أنه يهتم بأمورهما الصغيرة ويشاركهما الحديث . فإذا

قام بين الأخوة نزاع تداخل وحاول أن يحل الإشكال فى لطف . وإذا كان بينهم ما يستدعى التحكيم اعتاد الأولاد أن يحكموه فى الأمر ويأخذوا برأيه .

ويدخل كمال وأخته الغرفة أحياناً بعد الدرس ونفسهما مليئة بروح الشر والعبث ، ولكن وفيق يعرف بطريقه ما كيف يعالج هذه النزعة الشريرة فى هذه النفوس الصغيرة . لا بالزجر ولا بالنصيحة التى لا تفيد فى هذه الحالة ، بل بالمشاركة والفهم للنزعة والعمل على اقتلاعها فى صبر وسماحة .

وهكذا ظل وفيق يتخذ مكانه بين هذه الأسرة ويوالى أكبر الأولاد بعنايته ، إلى أن اضطربت الأمور بالمرض الأخير للأب ، فانقطعت الدروس عند ما اشتد المرض وظلت منقطعة فترة طويلة بعد وفاته .

ونشأ عن وفاة الوالد نتيجة أخرى هى أن الأسرة أبدلت دارها ، وانتقلت من حى إلى حى . واختيرت دار أقرب إلى المدرسة التى ينتظر أن يلتحق بها الأخ الأكبر ، بعد حصوله على إجازة الدراسة الابتدائية . واتفق أن حصل عليها بعد وفاة والده بأشهر . ومن الطبيعى أنه لم يعد بحاجة إلى دروس . ولكن أستاذه ظل يتردد على الدار كصديق ، وليس بالغريب أن يكون صديقه . فإن التفاوت فى السن لم يكن كبيراً ، فست

سنوات أو سبع قد تبدو كثيرة فى التفرقة بين شخص وآخر ، ولكنها فى مجال العمر وفسحته ليست بالفرق الكبير .

وكان يجد ترحاباً من جميع أفراد الأسرة . فالأخ الكبير الذى التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية ، يجد فيه صديقاً فى أحاديثه وفى ألعابه المنزلية . والوالدة تجد فيه ابناً أكبر تستشيره فى أمورها . أجل إنه ليس صغيراً فى السن بحيث يصح أن يكون ابناً لها ، على أن ابنها الأكبر لا يزال يافعاً لا يمكن الركون إليه فى الأمور . وقد وجدت فى هذا الأستاذ الصغير السن من تركن إليه . وهو من جهة يظهر اهتماماً بأمر الأسرة والتودد إليها ، وكثيراً ما يدعى لمشاركتها فى طعامها . ويقضى أيام الجمع لدى الأسرة .

ومضت سنة على ذلك ترك فى آخرها الابن الأكبر الدراسة الثانوية . فهو لم يخلق للدراسة المنتظمة بل أن روحه الرياضية وحبه للحركة يدفعانه إلى المدرسة الحربية . وأتيح له القبول بها ، وفيها صار يقضى الوقت مقيما بالمدرسة ، لا يأتى الدار إلا فى أوقات العطلة .

فكان الأستاذ وفيق يحضر فى أيام العطلة إلى الدار ويخرج للنزهة مع تلميذه السابق وفى وسط الأسبوع يقوم أحياناً بزيارة الأسرة ، يسأل الأم عما إذا كانت فى حاجة إلى خدمة يؤديها ،

فتشكره على هذه العاطفة وتعهد إليه أحياناً فى شراء أو اختيار بعض الأشياء التى تحتاج إليها لأولادها .

أخذت أمور الأسرة فى تلك السنوات تتطور من الوجهة المادية فإن الأب لم يترك ضياعاً . وإنما ترك مالا فى ذمة بعض الأشخاص يتطلب الوصول إليه قضايا كثيرة ، وقد عهدت الوالدة إلى قريب لها فى استخلاص هذا المال واتخذته وكيلا ، وهذا القريب من ذوى اليسار . واعتقدت الوالدة أن فى يساره ضماناً للأموال ، وحسن تدبير لها ، ولكن اليسار غير القناعة .

نجح هذا القريب فى استخلاص الأموال . وكانت من الكثرة بحيث يستطيع بها أن يشترى ضياعاً تبقى على المال للأسرة ، فيعيش أفرادها فى رغد . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك ، وقد اقترحت عليه الوالدة أكثر من مرة أن يفعل ، صار يسوف ويستنزف هذه الأموال لنفسه ، ويطمئن الأم بأنها ستجد حاجتها دائماً . فلا معنى للإسراع خشية الوقوع فى شراء ضيعة غير صالحة .

وهكذا دخل عنصر القلق إلى حياة الأسرة ، والأم الكتوم لا تظهر شيئاً منه ، والابن الكبير لا يأبه له ، لأنه منصرف إلى نفسه . وقد التأم مع الجو الذى يعيش به كطالب بالمدرسة الحربية . فهولا يخرج إلى عطلته حتى يبحث عن اللهو والعبث ،

وهو آمن إلى العمل الذى سيجده بالمدرسة .

ولكن الذى شعر بهذا القلق هو كمال الصغير . قد لا يكون عرف سببه أو أدرك تماماً موقف قريبه من الأم ، ولكنه قرأ فى عينى أمه الخضراوين هذا القلق . وشعر بأنها تخفى فى جوانحها عدم الاطمئنان إلى المستقبل ، وأخذت تشعر بشىء من الوحدة والانفراد فى هذا العالم . لا سيما أن والدتها سافرت فى تلك الشهور فى رحلة من رحلاتها البعيدة الطويلة إلى تركيا وآسيا الصغرى ولبنان وسوريا ، تأتيها منها الرسائل حيناً بعد حين ، كلها شوق وحنان واهتمام . وهى من جهتها ترسل رسائل متباعدة ولكنها لا تذكر فيها متاعبها الفكرية . فهى متاعب لم تتجسم بعد ، وهى متاعب قائمة على الخيال أكثر من الحقيقة الملموسة . فالقريب رجل معسول اللسان لبق وكيس فى معاملتها . وليس لها أن تشكو من معاملته فلم تر أن تقلق بال والدتها فى سفرها البعيد من أجل مجرد إحساس وتخيل .

فكانت تكتم هذا القلق . وتكتمه بصفة خاصة عن أولادها . وكل عنايتها منصرفة إلى أن يظل صغارها بمنأى عن المتاعب . وكان من طبيعتها ألا تحدث الصديقات فى شئونها الخاصة ، ولا تطلعهم على أمرها . ولكن هنالك شخص أخذ يهتم بهذه الأمور ويحاول أن يستجلى موقفها . وهو الأستاذ وفيق

يفعل ذلك بحذر وبعطف ، فأخذت أمينة هانم تفضي إليه شيئاً فشيئاً بما يساورها من قلق .

ولا يستطيع الأستاذ وفيق أن يأخذ الأمر فى حزم بيده بل هو يكتفى بالعطف وشيء من النصيحة . ونصائحه موفقة فى أكثر الأحيان . وزادت الأم اهتماماً بمعرفة رأيه فى أمور شتى : ألم يكن يعلم ولدها الأكبر تعليما أدى إلى نجاحه فى الامتحان بعد طول إخفاق ؟ ألم يكن الرجل الوحيد حولها الذى تستطيع أن تركن إليه شيئاً ما ؟

وكان كمال الصغير على اهتمامه بدروسه وانصرافه إلى القراءة والاطلاع ، يراقب الأمور مراقبة دقيقة أكثر مما ينتظر ممن هو فى عمره ، ومع ذلك لا تكلفه هذه المراقبة شيئاً . فهى ليست مراقبة مادية تقوم على النظر والسمع . وإنما هى مراقبة بالحس والشعور ، وما يشبه أن يكون الغريزة ، فقد تكفيه ملاحظة أو كلمة تقال هنا أو هنالك ليفهم ما ينطوى عليه فكر المتحدث . وليتصل بالموضوع اتصالا وثيقاً مدفوعاً بحاسته ومدفوعاً بحبه لوالدته وإشفاقه عليها .

أخذ يرحب بما رآه من الأستاذ وفيق من عطف واستجابة لشكوى الأم واهتمام بأمورها . ولم يك لهذه الشكوى حتى ذلك الوقت أساس . فإن القريب المستولى على الأموال لم يسفر عن

غرض من الأغراض . بل كل ما ظهر منه تراخ وإهمال فى تدبير المال بحيث يمكن استثماره والاحتفاظ بأصله . أما رغبات الوالدة فتجاب للحال . ويمدها بكل ما تحتاج إليه من مال . ويفهمها تماماً أنها سوف لا تحتاج لمال إلا وجدته ، فالأموال كثيرة تكفى حتى يشب أولادها ، وهم فى يسر . كما أن قرابته لها تجعلها منه بمنزلة الأخت وهكذا تطمئن حيناً ثم يعاودها القلق .

ومما يزيد فى قلقها أنها لم تكن خبيرة بتدبير أمور المال . فهى لا تعلم شيئاً من طريقه استثماره ، وكل ما ترجوه أن يشترى بهذا المال عقاراً يحفظ الأصل ويدر ريعاً . ومما يزيد فى قلقها أنها شهدت ذلك القصر الذى كانت تجرى فيه فى أيام صباها . وشهدت كيف انتقلت بهم الأمور إلى المنزل الصغير بجوار مسجد أبي العباس . وأن العامل الأكبر فى ضياع ثروة والدتها الواسعة هو ذلك الشيخ الطاهر التقى الورع ، الذى أقامه والدها وصياً عليهم .

لقد شهدت ذهاب تلك الدور والضياع فكيف لا تذهب تلك الأموال ، وإنفاقها أسهل منالا من بيع تلك الدور والضياع ؟

أمام هذه المتاعب الفكرية لم تجد راحة إلا فى التحدث إلى الأستاذ وفيق ، وأن تبوح له بما يساورها من قلق .

٤

المعــــلم

كان الأستاذ وفيق إلى تلك الفترة لا يزال يسكن فى المنزل القريب من بيت الأسرة القديم . وهو المنزل الذى سكن فيه وهو طالب يتم دراسته الثانوية . وظل ساكناً فيه حين وجد عملا فى إحدى وزارات الحكومة وفكر فى أن يتابع الدراسة ليلا ، ولكنه انصرف بعد قليل عن الدراسة . وزاده انصرافاً أن وجد وسائل ليضيف إلى مرتبه الصغير بعض دريهمات بإعطاء الدروس لصغار التلاميذ .

وقد رأينا كيف التحق بالأسرة ليعاون ذلك الغلام القليل العناية بدروسه . وفى تلك السنة نجح الغلام . فعزى نجاحه إلى كفاءة المعلم . وعرف الأستاذ وفيق بين أعيان الحى فاتخذه واحد أو اثنان منهم معلماً لأبنائه . وهكذا وجد الأستاذ وفيق ربحاً جديداً .

وكان الأستاذ وفيق بقامته الفارعة ، وجسمه النحيل ووجهه الأسمر الجميل القسمات ، وعينيه اللتين بهما شىء من الحول غير كريه ، محبباً إلى نفوس الآباء وإلى من يتصل به من أهل

الدور التى يغشاها . ومسلكه وطريقة معاونته لتلاميذه مما يزيد فى قيمته . فهو مؤدب لين العريكة . وهو مع تلاميذه لا يتخذ سطوة المعلم بل يشاركهم ضحكهم ولعبهم بمجرد انتهاء الدرس . ويسلك معهم مسلك الأخ الأكبر ولم يكن عادة ليكبرهم كثيراً .

وعندما زاد دخله لم يعمد إلى تدبير المال وادخاره ، بل عمد إلى زيادة التأنق فى ثيابه ، فهو بطبيعته ميال إلى التأنق فى الثياب ، وقد اعتاد وهو طالب أن يعيش على مبلغ ضئيل يأتيه من والده من أقاصى الصعيد ، فلا يستطيع إشباع رغبته فى الثياب الجميلة . ولكنه حرص مع ذلك على العناية بالحلة الوحيدة التى يمتلكها واحتفظ دائماً بنظافة ثيابه مما عوض عليه كثرة الثياب وتنوعها .

والآن وقد صار موظفاً وزاد دخله بالدروس التى يلقيها ، لم يحاول أن يتوسع فى مسكنه . فلم يغير من شقته الصغيرة ولا بدل من أثاثها الحقير وإنما غير وزاد من ثيابه . فصارت له ثياب مختلفة الألوان ، وعرف الطريق إلى رباطات الرقبة الملونة بألوان بهيجة ، واقتنى عصاً ذات يد ملتوية مذهبة كالمألوف فى ذلك العصر ، وهو يميل بطربوشه شيئاً ما إلى اليمين ويمشط شعر رأسه الأسود الفاحم بطلاء يجعله لامعاً ، وكثيراً ما يسير

فى الحى بادى الأناقة ليقصد دار أحد تلاميذه أو ليقصد دار الأسرة التى انتقلت من ذلك الحىّ .

وكان من الممكن أن تصبح تلك الأناقة منفرة ويصبح المظهر الذى اتخذه كريهاً ، وأن يقضى تأنقه على تلك الدروس التى يأتيه منها دخل يكاد يتعادل مع مرتبه ، ولكن هذا التأنق لم يكن مقروناً بشىء من الخيلاء ، بل احتفظ وفيق بظرفه ورقته . ولم تؤثر هذه الأناقة فيه ، ولم تثر عليه ثائرة الناس كما تفعل الأناقة أحياناً .

ربما كان الواجب أن يرسل شيئاً من المال الذى يأتيه إلى أبويه . فإن والده رجل رقيق الحال عمل فى وظيفة حكومية صغيرة وظل بها طوال حياته ولم يرتفع مرتبه إلا قليلا . وكان عمله قريباً من القرية التى نشأ فيها فإذا بلغ السن التى يعتزل فيها العمل آوى إلى قريته يعيش على معاش ضئيل ، عيشة قريبة من عيشة الفلاح . أما والدته فقروية نشأت فى القرية ذاتها واحتفظت بطابع الفلاحات . وهما يعتبران ابنهما بعد أن وجد عمله الحكومى من الأثرياء . ولا شك فى أن الأب طلب أحياناً من ابنه بعض المساعدة المالية فأجابه الابن إلى طلبه وأرسل إليه القليل من المال ، ولكنه لم يفكر فى إرسال مساعدة منتظمة ، لأن طموحه وحاجته إلى الظهور يفرضان عليه نفقات تستغرق كل ما يحصل عليه من مال .

وكان وفيق موفقاً فى تلاميذه فجميعهم من الذين يجد آباؤهم سعة من العيش ولذلك ينزل وفيق منزلا رحباً ، وكثيراً ما قدم له الغداء أو العشاء ، من نوع لا يمكن أن يحصل عليه بنقوده .

وهكذا شعر وفيق أنه يدور فى غير الوسط الذى يجب أن يدور فيه ، فلا هو وسط أسرته ولا هو وسط أقرانه فى العمل . وأخذ يشعر بأنه قريب من طبقة هذه الأسر التى يختلط بها ، ولا يجد سعادة إلا فى عشرة هذه الطبقة . وصارت له حساسية يتلمس بها التلاميذ . فإذا تقدم إليه تلميذ من غير هذه الطبقة تملص واعتذر بكثرة مشاغله ، مفضلا أن يبقى بين الأسر التى ألفها وألف معاشرتها .

وكان يكثر التردد على دار تلميذه القديم . وهذا فى طريقه لأن يصير ضابطاً بالجيش ويذهب فى يوم الخميس عادة لزيارة الأسرة حيث يوافيه تلميذه . فتحتفل الأسرة بيوم العطلة الأسبوعية التى يسمح فيها لطلبة المدرسة الحربية بزيارة دورهم والمبيت فيها وفى تلك الليلة يتناول مع الأسرة عشاء معداً عادة بعناية أكثر منه فى أيام الأسبوع الأخرى . وبعد العشاء يصحب وفيق تلميذه القديم إلى أحد الملاهى وتمتد هذه السهرة إلى ما بعد منتصف الليل . ثم يعود مع تلميذه إلى الدار فيودعه

عند بابها ويسير قاصداً منزله وهو مرتاح النفس راض بالمتعة التى وجدها فى سهرته دافئ بالخمر التى شربها مع تلميذه .

وهنالك يصل إلى غرفته التى أخذ أخيراً فى العناية بها وتنظيمها كلما وجد معه فضلا من مال . وفى هذه الغرفة يشعر أحياناً بلذة السهرة إذا ظل متأثراً بها ، أو بشىء من الانقباض للوحدة التى هو فيها بالمقارنة لما كان فيه من مرح صاخب .

صارت هذه الزيارة فى يوم الخميس مقدسة لديه لا ينقطع عنها إلا لأمر جليل . ومع ذلك لم تكن هى الزيارة الوحيدة للأسرة فى أثناء الأسبوع يزور الأسرة مرة أو مرتين بعد ظهر اليوم . وهنالك يجد الأم مع ولديها الصغيرين وقد اعتادا هذه الزيارات فصارا يترقبانها ويجلسان بعض الوقت مع امهما والضيف ، ثم ينصرفان للعبهما وتجلس إليه الأم تتحدث عن أموره أحياناً وعن أمورها أكثر الأحيان . فهو يروى لها كل ما يحدث له فى حياته العادية وهى تفضى إليه بمتاعبها التى كانت حتى ذلك الوقت مجرد أوهام وقلق أكثر منها أموراً واقعية .

وبدأ من جهته يترقب هذه الزيارات فإن أمينة هانم لم تكن بالسيدة التى عرف لها مثيلا فى أقاربه وأهله . فهى من معدن خاص ليس له به عهد وحديثها وتفكيرها يسترعى النظر . فما هى ثرثارة تكرر القول فى الهام والتافه بل تتحدث فى منطق

مرتب وإذا تناولت أمراً من الأمور التافهة فى ظاهرها بينت وجه الأهمية فى الخوض فيه .

وقد شرحت له موقفها تماماً وهو موقف لا يبدو له خطيراً لأن المال الذى تركه زوجها يعده وفيق ثروة كبيرة ولا يتصور كيف ينفد هذا المال العظيم فى نظره . فأخذ يطمئنها كثيراً ولا يرى الأمر خطيراً كما تتوهم .

وفى بعض الأحيان حين ينفرد إلى نفسه فى غرفته يترك لأفكاره عنانها فيتخيل حظه لو أوتى مالا كمال هذه الأسرة ، وماذا يفعل وكيف تصبح حياته سعيدة .

وحينئذ تسارع إليه فكرة طالما ترددت فى مخيلته هى الشعور بالوحدة ، فالمال إذن سيعينه على القضاء على هذه الوحدة . وتسارع إليه تلك الفكرة التى خاضت فيها أسرته من قبل، وهى فكرة الزواج من ابنة عمه .

فلعمه ، وهو مزارع بسيط ، فتاة ريفية صغيرة كان وفيق يحملها وهى طفلة ، وهو غلام فى المدرسة الابتدائية ، فتتشبث به الطفلة وإذا ما قبلها تقبله فى براءة الأطفال المداعبين . فخيل إلى العم وامرأته أن لا بد من اقترانهما على ما بينهما من فرق فى السن . ورآها وفيق وهى صبية ثم رآها فى آخر مرة عند ما زار قريته . وهى فتاة صغيرة تجلى بجمالها ، جمال ريفى بسيط

يستمد الحسن مما يحيط به من مناظر الطبيعة ، فهى نحيلة الجسد فى ثوبها الأسود جميلة قسمات الوجه واسعة العينين سمراء فى مثل لون وفيق ، ولكنها شديدة الحياء خجولة تسرع بالهرب إذا ما رأت وفيقاً فى طريقها ، وكأنها شعرت بما قدر لها أو لعلها سمعت أقوالا عن ذلك ، ولم تكن نافرة بل هى ترى فى وفيق غاية أملها .

وانتظر الأبوان من وفيق أن يتقدم إليهما بطلب يدها بمجرد التحاقه بالعمل ولكنه لم يفعل . وتحدث إليه أبوه فى أمر هذا الزواج فى آخر مرة رآه فيها فأبدى وفيق أن الفتاة صغيرة جداً فهى فى الثالثة عشرة من عمرها ولا يجب التفكير فى زواجها الآن بل يجب الانتظار. ولم يفهمه أبوه فى بادئ الأمر. إن هذه السن يراها الأب سنًّا صالحة للزواج . واضطر وفيق إلى تكرار. الشرح لأبيه بأنه يجب الانتظار فلم يقتنع الأب ولكنه سكت وعزى آراء ابنه إلى ما شاب آراءه من حضارة المدن ، وعلى أن وفيق قد بلغ أقصى درجات التعليم فى رأى أبيه وصار من أولى الأمر ، إذ التحق بعمل فى الدولة وغدا مرتبه وهو فى الدولة أقصى ما وصل إليه أبوه فى نهاية خدمته . فلم يسع الأب إلا السكوت والنزول على إرادة ابنه .

أخذت صورة هذه الفتاة تتمثل لديه فى وحدته . ومن

الطبيعى أن يشعر برضاً لهذه الصورة ، ولكنه لم يشعر بشىء من ذلك ، والفتاة جميلة ، ولكن هذا الجمال لم يكن مؤثراً فيه . ولقد بدأت الفتاة وأبواها يعلقان الآمال على هذا الزواج ويعتبرانه أمراً محتوماً ، ولكنه هو نفسه لم يعد يعتبره من الأمور المنتظرة ، بل صار يعتبر مثل هذا الزواج عثرة فى طريقه تقضى على مستقبله وعلى ما يطمح إليه .

فكيف ترضى نفسه بفتاة قروية مهما كانت جميلة وقريبة إليه ؟ إنه أحياناً ليستشعر شيئاً من الخجل حين يقدم والده ليمضى بضعة أيام فى المدينة . فإن والده يرتدى بذلة ولكنها رثة عتيقة ، اتسعت وترهلت على جسمه النحيل . فكان عند هذه الزيارات يفضل الانقطاع عن التردد على الأسر . ثم إذا زاره أحد تلاميذه حاول أن يفهمه أن هذا الشخص هو أحد أقربائه من بعيد ، لا يفعل ذلك صراحة ، بل يشير إلى ذلك بطريقة عارضة لأنه يخشى افتضاح الأمر وظهور الحقيقة ، فيقف موقف الكذابين . ولذلك يكتفى بالتلميح ويقتنع هؤلاء التلاميذ عادة وهم صغار فى السن بهذا التلميح ، ويثبت فى أذهانهم أكثر من تصريحه .

فإذا كان الأمر قد وصل به إلى هذا الحد فيما يتعلق بأبيه فكيف يتخذ من تلك الفتاة القروية شريكة لحياته ؟

إن أعظم أمانيه أن يجد فتاة فى الوسط الذى ألف أن يعيش فيه . وداخله الوهم بأنه سيجد فتاة تكون أختاً لأحد هؤلاء التلاميذ . وهى بلا ريب فتاة متعلمة ميسورة يستطيع أن يعتمد على أهلها ويعيش فى ظل أسرتها عيشة الرخاء .

وحبذا لو أن تلك الفتاة جميلة : تشبه من ؟ حبذا لو أنها فى صورة أمينةهانم بعينيها الخضراوين ولونها الأبيض الزاهى المشرب بالحمرة ، على أن تكون فى سن ابنة عمه الريفية .

٥

قلق

لم يعد إحساس القلق هو الأمر الوحيد الذى طرأ على أمينة هانم فى حياتها ، فإلى جانب هذا الإحساس أخذت تستعرض حياتها الماضية ، وظروف زواجها والمدة التى قضتها فى هذا الزواج ؛ وأخذت تشعر بأن هذه الحياة التى ركنت إليها وقضت فيها زهرة العمر ليست حياة موفقة . فهى قد استكانت إلى هذه الحياة ورضيت بها ، ولكن رضاءها قائم على أمرين أحدهما تلك العناية المادية التى أحاطها بها زوجها بحيث وجدت خفض العيش ، وثانياً ذلك العطف والحنو الأبوى الذى أحاطها به زوجها بحيث شعرت كأنها تعيش فى كنف أبيها . ثم جاء أولادها إلى هذه الحياة فوجدت متعة جديدة وقيمة جديدة لحياتها . غير أنها بدأت تفكر هل الحياة الزوجية لا تنطوى على غير الحنو والعطف الأبوى ؟ أليس للزواج بريق خاص حين يتكافأ الزوجان وتأتلف نفساهما ؟ إن هذه الألفة لم تشعر بها قط . فهى لم تشعر بأنها شريكة لزوجها . كانت تحترمه وتحبه ولكن هذا الحب تكملة لما تشعر به نحو أبيها ؛ وليس من شأن الفتاة أن تعتبر نفسها شريكة لزوجها الهرم، بل هى تتلقى عطفه

وتركن إليه كما تركن البنت إلى أبيها . فإذا أشار برأى من الآراء ترى من واجبها أن تطيعه وأن تعتبره على صواب . وإذا كانت الطاعة غير ممكنة — وهذا قلما يحدث — فإنها تعترض عليه فى رفق كما يفعل الابن فى أمر صدر إليه من أبيه فوجده صعب التنفيذ على نفسه .

أخذت تراجع حياتها فتجد أنها اجتازت عتبة الصبا وصارت امرأة مكتملة الشباب دون أن تعرف حقيقة الزواج ، ودون أن تشعر بتلك الغبطة التى تظهر على بعض صديقاتها حين يذكرن أزواجهن . وهى من جهتها فى أثناء حياتها الزوجية لا تستطيع أن تشير إلى زوجها إلا بما يدل على الاحترام وفى مخاطبتها له لا تستطيع أن ترفع الكلفة . وأخذت الآن تتذكر ذلك باستغراب فى نفسها لأنها لم تكن فى فترة زواجها تشعر بأنها تفعل ذلك بل وجدته أمراً طبيعياً ، فهى الآن تتذكر كيف أن صديقاتها يتكلمن عن أزواجهن بل يخاطبن أزواجهن فى الظروف القليلة التى استطاعت فيها أن تسمع هؤلاء الزوجات ، فترى أنهن يكتفين بالنداء بالاسم بلا كلفة أما هى فلم تجرؤ على ذلك مرة واحدة .

والعجيب فى الأمر أن الزوج لم يأخذ على زوجته تلك الكلفة بل وجدها أمراً طبيعياً ؛ وكان من جهته يناديها باسمها

كأنها ابنة له . وبدأت ترى الآن أن الزوج كان شاعراً بهذا الأحساس البنوى فلم يحاول أن يغير من مجراه.ولعله إن حاول يجد نفوراً . فهو لصالح نفسه قد فعل خيراً إذ لم يقدم على هذه التجربة ؛ واكتفى بأن يقف منها موقف الوالد ، وهو موقف أجدر بسنه ويدل على حكمته وتبصره .

إذن فهى تعتبر نفسها بأنها لم تتزوج قط ، أو على الأقل لم تعرف معنى الزواج وإن عرفت حنو الأمومة .

لم تفكر فى هذا فى حياة زوجها ؛ فقد كانت تنعم بهذا العطف وتكتفى به ؛ لا لأنها تعرف أن هنالك ما هو أكثر من هذا العطف . فى حياتها وهى طفلة فى دار والديها الواسعة تمرح بين الجوارى ويزورها أقاربها من أطفال فى مثل سنها ، لا يعرف الجميع ولا يهدفون إلا لحسن المسلك والتفوق بمراعاة قواعد الأدب . وهم جميعاً فى جو بعيد عن الدنايا ، ولكنه جو بعيد عن معرفة حقيقية للحياة بما فيها من قوة الألم وقوة اللذة . فهذه الحياة الخاصة قد باعدت بينها وبين معرفة الحياة الحقيقية ، وهى حين تزوجت ، لم تكن إلا طفلة كبيرة ، وزواجها من هذا الرجل الهرم الذى يفرق بينها وبينه عشرات السنوات إنما هو ارتداد لشىء فقدته هو حنو والدها قبل وفاته ، وقد كسبت بهذا الزواج أن عاد إليها هذا الحنو ، ولذلك شعرت

بأن كسبها فيه كبير ، وهى قد عاشت معه ناعمة البال لأنها تشعر بأنها متمتعة بكل شىء . أجل لم يكن زوجها فى مثل الثراء الذى عرفته فى صباها ولكنه أتاح لها بجده حياة رخاء . فلم تشعر قط بضيق الحاجة إلى المال .

وحين ولدت صغارها وجدت لذة جديدة أتيحت لها فى العناية بهم والسهر عليهم . ومما زادها غبطة أن الوالد الهرم كان شديد الحنو على أطفاله كبير العناية بهم بالغ الاهتمام بحاجياتهم . ولم تشعر بأنهم عبء عليه ولا بأن رزقه ضاق بهم .

وقد أخذت تحب أولادها حباً صادقاً وإن لم تعدل بينهم فى الحب فهى أكثر تعلقاً بابنها الكبير . ولعل السبب فى ذلك أنه سبب لها من المتاعب والتفكير أكثر من إخوته . فهو فى طفولته كثير العبث يزج بنفسه فى مغامرات الطفولة فكان أكثر تعرضاً للإصابة بكدمات أو جروح . فإذا التحق بدراسته لم يسر فى الدراسة سيراً سريعاً بل احتاج إلى من يحثه على الدراسة ويراقبه مراقبة شديدة كى يكب على دروسه . وقد رأينا أنه احتاج فى آخر الأمر إلى المعلم والدروس الخاصة .

وأخذ بعد أن شب يميل للألعاب العنيفة . فلعبة كرة القدم من أحب الألعاب إليه ، وكثيراً ما أصيب بضربات من أقدام زملائه . فهى إذ تقتطع وقتاً أكبر فى مراقبته والسهر عليه ،

تظهر له ميلا أكبر مما تظهره لإخوته .

أما الوالد الكهل فقد ذكرنا أنه كان كبير التعلق بابنته الوسطى بين الأطفال الثلاثة والابنة تشعر بهذا الحب فإذا ماحل الأب بالدار التجأت إليه حيث تقبع إلى جانبه فى مقعده كالهرة . وذكرنا كيف عرف الأخوان أنها المفضلة عند أبيهما ، وأنها لا يرد لها طلب . فكانا يتخذانها آلة يسخرانها لإجابة مطالبهما دون تردد . فإذا أراد انوعاً من الفاكهة أو الحلوى حرضاها على طلبها من الأب . فلا تلبث أغراضهما أن تتحقق .

وكانت الابنة خاضعة بنوع خاص لتأثير أخيها الأكبر ، وهى تنضم إليه دائماً فى الفكرة أو فى العبث بأخيهما الصغير .

وأما كمال فهو بمعزل عن كل هذا يدخر سلطته للوقت المناسب حين تكون الجدة مقيمة لديهم . وفى غير ذلك يلجأ إلى الحكمة والمداهنة كى يحصل على أغراضه .

فلما مات الوالد زاد اهتمام الأم بابنها الكبير ، فهو مطمح آمالها . ولكن هذا الابن يتعثر فى دراسته على عكس إخوته ثم وجد مخرجاً من تلك الدروس التى لا يستسيغها كثيراً حين التحق بالمدرسة الحربية . فالدراسة فى تلك المدرسة تتفق وهواه ، وفى حياة الجندية كثير من تلك اللذة التى يجدها فى الألعاب الخشنة . أما الدراسات النظرية فى المدرسة فهى قليلة ولا يعلق عليها أولو الأمر أهمية كبيرة .

كانت الأم تنتظر بفارغ الصبر إتمام دراسته ولكنه لم يكد يلتحق بهذه الدراسة حتى أخذت تشعر بهذا القلق الذى انتابها على المال الذى تركه زوجها . ولعل لقلقها هذا سبباً آخر . فهى إذ شعرت بهذا الخوف أرادت أن تصارح ابنها الأكبر ولكنها لم تجد منه ذلك الاهتمام الذى تنتظره . ثم بدا فى حياته عنصر جديد ذلك أنه يقضى الأسبوع فى المدرسة فلا يأتى اليوم الأخير من الأسبوع حتى يسمح له بالذهاب إلى داره مدة ليلة ويوم . يأتى إلى الدار فى الظهر فى يوم الخميس فيتناول الغداء الممتاز الذى يعد له . فإذا أقبل العصر عادة وفى المساء فى بعض الأحيان طلب من أمه أكبر مبلغ من المال ، ثم خرج إلى السهر مع أقرانه وأصدقائه . فهو إذن عنصر من عناصر القلق على المال وحاجته المتزايدة إليه مما يزيد قلق الأم . وهى تشعر فى أعماق نفسها أن مسلك ابنها غير قويم . وتشم فى صباح يوم الجمعة أحياناً عبير الخمر فى أنفاسه مما يدل على أنه أمضى ليلة صاخبة ولكنها فى الحقيقة لم تحاول مناقشته فى هذا الأمر بل أخذت تسدى إليه النصيحة فى إشارات لو أراد النصح لانتصح بها .

وهو من جهته لم يحاول قط أن ينتصح فإن زملاءه جميعاً أو أكثرهم فى المدرسة ينحون هذا النحو ، ويرون فيه نوعاً من

الرجولة التي تليق بمن سوف يخاطر بحياته فى سبيل وطنه . وإن لم تكن هنالك أقل فرصة للمخاطرة إلا فى عالم الفتيات .

فهذا الابن الذى تتعلق به أكثر من ولديها الآخرين هو إذن مصدر من مصادر قلقها . فهى تخشى أن ينفد المال سريعاً قبل أن يتم دراسته بالمدرسة وحينئذمن يعينهم؟ إنها تستطيع أن تلجأ طبعاً إلى أمها ولكنها لا تريد مثل هذا الموقف . فهى قد استقلت بحياتها مع هذا الرجل الذى حباها السنين الطوال بعطفه وفهمت لذة الاستمتاع بهذا الاستقلال فكيف تعود إلى الاعتماد على أسرتها ؟ ومع ذلك كانت موارد أموال الجدة قد نقصت نقصاً كبيراً بحيث أنها لا تعيش فى رخاء نسبى إلا بسبب تناقص أولئك الذين يعتمدون عليها ، فهذا الملجأ إذن هو آخر ما تفكر فيه .

حتى تلك اللحظة لم يكن الخوف من انتهاء المال الذى تركه زوجها بارزاً فى صورة واضحة . وكل ما أثار فى نفسها الشكوك هو تراخى قريبها فى العمل على شراء ممتلكات لاستثمارها بهذا المبلغ ، وبذلك يحتفظ بالأصل . وكلما حادثته فى ذلك تعلل وهدأ من خاطرها بالوعد بأن يفعل . وأخبرها بأنها لن تحتاج إلى مال مهما كان الأمر وما دام فى قيد الحياة . ولكنه لم يفهم قط طباعها ولم يفهم أنه لو قدر لهذا المال أن ينفد فلن تقبل

من هذا القريب شيئاً . وهل ينتظر منها وهى التى عرفت ذلك الرخاء الذى وجدته فى كنف زوجها الفقيد أن تمد يدها إلى قريب أو غريب ؟ إن ذلك موقف لا تتصوره وهى تفضل الموت عليه .

فى هذه الفترة لم تكن بحاجة إلى شىء من هذا . وكل ما ترغب فيه من الحماية شىء من العطف يقطع وحدتها ، ولو أن والدتها لم تكن فى سفر بعيد لوجدت هذا العطف . أما وهى وحيدة وأخواتها يسكن بالإسكندرية فقد شعرت بهذه الوحدة المريرة . وكانت تجد عزاء لو أن ابنها الأكبر أظهر أقل اهتمام بما يساورها من قلق . وقد حاولت أن تبعثه على الاهتمام فلم تجد إلا عدم مبالاة . ولعل سنه أصغر من أن يقدر هذا الأمر بالرغم من ثيابه العسكرية . ولكن الحقيقة أن المسألة لم تكن متعلقة بالسن بل متعلقة أكثر من ذلك بتحول أخلاقه بحيث توافق أخلاق الذين يعاشرهم . فهو الآن لا يلتمس فى أوقات فراغه إلا اللذة والاتصال بالفتيات والظهور بمظهر الغنى وسط أقرانه ، وهذا هو السبب فى حاجته الدائمة إلى المال .

ومع ذلك وجدت الأم شخصاً يستمع لشكايتها وما يساورها من قلق ويبدو لها أنه يشاطرها أفكارها ويحمل معها عبء هذه الوساوس ، وهو الأستاذ وفيق الذى يتردد على دارها فى كل

يوم خميس تقريباً فيتناول الغداء مع تلميذه القديم . فإذا آوى التلميذ إلى الفراش بعد الغداء استعداداً لسهرة الليل يجلس الأستاذ وفيق إلى أمينة هانم يتحدث معها فى شأن الدار ويبادلها الأفكار والآراء فتجد عزاء .

فإذا قام تلميذه القديم واستعد للنزول إلى أصدقائه يرافقه الأستاذ وفيق فى أغلب الأحيان ؛ وترتاح الأم إلى هذه المرافقة لأنها واثقة من أن الأستاذ وفيق سوف يسهر على ولدها ويرعاه كما لو أنها حاضرة .

فإذا تبين لها فى اليوم التالى أن ابنها قضى سهرة صاخبة لم تشرك الأستاذ وفيق فى ذلك الأمر . فلأمر ما تشعر أن الأستاذ وفيق تركه مع صحابه ، أو أن ابنها عرف كيف يتخلص منه ، أو على الأقل أن ابنها كان يمضى ليلة أكثر صخباً ، وأن حالته تكون فى اليوم التالى أسوأ منها ، لو أنه على انفراد مع زملائه بغير صحبة الأستاذ وفيق .

فقد اتخذ الأستاذ وفيق فى نظرها مكاناً خاصاً فهى لا تستطيع أن تفهم أنه يعاقر الخمر كابنها ، أو على الأقل يكثر من شربها ، ولا تستطيع أن تتصور ألا أنه عامل خير فى وسط هؤلاء الرفاق الذين يألفهم ابنها وتراه فى موقف المعلم مع هؤلاء الفتية الطائشين .

وكانت أحياناً تحاول أن تعرف من ابنها أنباء عن طريقة تمضيته السهرة فيجيبها الابن إجابة غامضة . وإذا مست أمر الأستاذ وفيق وما فعله فى صحبته ، تهرب من ذكر أى شيء . ولا شك فى أن التفاهم كان وثيقاً بين الابن الأكبر والأستاذ وفيق . ولعل وفيقاً من أخف الناس صحبة وأشدهم مرحاً . حين تلعب فى رأسه الخمر . ويصير هو محور الجماعة فى التماس أسباب السرور . وقد ينقلب شيطاناً مريداً ، ولكنه ظل فى نظر الأم ذلك الملاك الطاهر .

٦

تطور حياة

أخذت حياة كمال فى هذه الفترة تسير على أسلوب غير الذى ألفه من قبل . فلم يكن الأخوة يجتمعون للعب كما كانوا يفعلون . وقد شب الأخ الأكبر ومرّ بدور الطفولة سريعاً لأنه يكبر أخويه كثيراً . فصار الأخوان ينظران إليه نظرتهما إلى والد . ولكنه لم يكن جديراً بمركز الوالد لأنه لا يهتم بأمرهما كما يفعل الآباء عادة ، بل انصرف كل الانصراف إلى مدرسته الجديدة ، وإلى رفاقه فيها وإلى نزهاته فى أيام العطلة .

أما كمال فأقبل بكليته على دروسه فى المدرسة وأظهر اجتهاداً ونشاطاً . وكان دائم القراءة والاطلاع فى الكتب التى تخرج عن نطاق درسه بقدر ما تسمح له ظروفه . وانصرفت أخته أيضاً إلى دروسها إذ التحقت بمدرسة ابتدائية أميرية للبنات . وأخذت تتلقى علومها كما تتلقى دروساً فى العزف على البيانو وفى الحياكة والتطريز . وقد اشترى أبوها من قبل بيانو انتظاراً للفترة التى يبدأ فيها تعليم الفتاة الموسيقى . وظل هذا البيانو جزءاً من الأثاث لأن الأم درجت فى دار لا تعرف هذه الآلة

الأوربية ولا تعزف عليها . والآن إذ أخذت الابنة فى دروسها كان صوت هذه الآلة يملأ الدار أحياناً بقطع موسيقية صغيرة جميلة ، وأكثر الأحيان بتمارين متكررة يمل السامع من تكرارها ، وتثير بعد أن تستمر ساعة أو أكثر أعصاب السامعين إذا كانوا من الكبار . أما كمال فلم يتضايق لهذه التمارين بل يجد من الواجب تشجيعها . وود لو استطاع أن يشارك أخته هذه التمارين ولكنه وجد نفسه مثقلا بدروسه وقراءاته فأرجأ تعلم هذه الآلة العازفة . ولعل طبيعته تميل إلى الأمور النظرية أكثر من العملية ، وأخذت تظهر فيه علائم تدل على هذه الطبيعة . فهو منذ صغره لم يتقن الألعاب كثيراً . وعند ما شب تنازل عن هذه الألعاب فى الحال ، واتجه بنفسه ومن غير حث إلى القراءة ، وصار يتذوق الكتب ويجد فيها لذته . وهذا على غير ما فطر عليه أخوه الأكبر .

فقد رأى الأخ الأكبر أخته تعزف بعض الألحان فأخذ يجرب عزفها . ولم يلبث أن أحسن عزف هذه المقطوعات بمجرد السماع . وكان أحياناً يسمع رقصات فيعزفها على البيانو بعد قليل من التمرين ، أو على الأقل يعزف اللحن دون أن يشوهه كثيراً ، ومع ذلك لا يبدو بمظهر الجد فى حديثه بل يظهر فى تصرفاته شىء من الخفة والطيش .

لم يكن الأخ الأكبر إذن مجرداً من الشعور بالموسيقى ، ولكنه لا يألف غير الموسيقى المرحة الراقصة من القطع الأوربية ، وأحياناً يدعو أخته إلى عزف قطع شرقية ، وكثيراً ما يصاحب العزف بالغناء إذ كان صوته غير قبيح .

وحدث حينذاك أن أتاح الأخ الأكبر لأخويه فرصة عجيبة : إذ تعرف بشقيق لأحد زملائه تلقى دروسه فى سويسرا وأقام بها سنوات طويلة . ويظهر أنه لم ينصرف إلى الدرس بقدر انصرافه إلى غير ما تنتظره أسرته . فتعلم العزف على الكمنجة وأتقنه إتقاناً كبيراً ، وعلق الآمال على أن يصبح موسيقياً كبيراً وعاد إلى مصر فإذا بآماله تنهار . فإن أهله لم يقبلوا أن يحترف ابنهم الموسيقى ويصير عازفاً ، وليس من المستطاع أن يجد مدخلا إلى سوق العازفين ، وهو عندئذ وقف على الأجانب من الإيطاليين بصفة خاصة ، فلا يستطيع العمل بإحدى الفرق الموسيقية ، ولا يجد عملا منتظماً بل تضمه بين فترة وأخرى إحدى الفرق إذا ما احتاجت إلى زيادة عددها أو إكمال نقص بها . وهذا العمل المتقطع لا يمكن الاعتماد عليه . وظل يعتمد فى نفقاته على أسرته وهذه حال لا يمكن أن تستمر .

دعا الأخ الأكبر هذا الشاب وصديق له إلى تناول الشاى فى عصر يوم من أيام الجمعة فجاء الشاب ومعه كمنجته فإذا

تناول الجميع الشاى أخرج تلك الآلة العازفة وبدأ يشد أوتارها لكى يوازنها . ثم أخذ يجرب عزف ألحان عليها . ثم بدأ قطعة موسيقية هى الرقصة المجرية الخامسة لبراهمز ، وهى قطعة مليئة بالحرارة شأن الموسيقى المجرية .

وأخذ كمال يصغى مشدوهاً إلى تلك النغمات السريعة التى تناثرت من لمس القوس للوتر . وكانت رنة الأنغام التى تخرج متجمعة من لمس القوس لوترين أو ثلاثة فى وقت واحد غريبة عليه ، وقد ملأت جو الغرفة بل الدار بالنغمات . وخيل إليه أن قلبه يتجاوب مع هذه الموسيقى السريعة الحارة . ولاحظ عن يقين أن بعض الأشياء الجامدة الموضوعة فوق البيانو من أوانى وزهريات تتجاوب مع العازف . بل قام فى ذهنه أن أنات تخرج فى بعض الأحيان من جوف البيانو ، وكأنها تتآلف مع روح النغمات الخارجة من الكمنجة ، لتصعد النغمات معاً فى الفضاء .

وعزف الشاب قطعة ثم قطعة . ومرت ساعات وكمال قابع فى ركن الغرفة لا يتحرك ، وترك لأخويه العناية بالضيف . فإذا انتهى العزف طلب فى لطف إلى الشاب العازف أن يريه الكمنجة . فأخذ الشاب يشرح له الأوتار ويريه جوانبها وتجويفها . وتناولها كمال فى يده برفق وخفة كأنه تناول جواهر تاج ملكى .

وعندما هم العازف بالانصراف أعرب كمال عن عظيم سروره فى حياء وفى عبارة مقتضبة . ودعا العازف إلى التردد على الدار مع أخيه . ومن الطبيعى أن العازف أجابه بالشكر . ولم يدر فى خلده أن كمال قصر فى عبارته المقتضبة عن الإعراب عما يجيش فى صدره . ومن الطبيعى أنه لم يهتم كثيراً برغبة هذا الغلام الصغير .

أما الغلام نفسه فقد استولى عليه حلم جديد فهو لم يجد حتى ذلك اليوم فى قراءاته تأثيراً كالذى وجده فى الإصغاء إلى هذه الألحان وكان لهذه الآلة العازفة صدى فى نفسه لم يعرفه فى ذلك البيانو الكبير الذى يملأ ركن غرفة الاستقبال فى دارهم . وربما كان التأثير نتيجة للألحان التى عزفت ، وكمال فى ذلك الوقت لا يميز بين نوع الألحان . ولكن العازف لم يعزف غير قطع تعد فى المقام الأول من الموسيقى الأوربية .

وهكذا نشأ فى كمال ذوق آخر فنى إلى جانب ذوقه الأدبى . وتركت هذه الزيارة فى نفسه أثراً عميقاً . ولكن هذا الأثر لم ينتج نتيجة إيجابية فى ذلك الوقت . فلم يتجه فكره إلى تعلم الموسيقى بل كانت ألحان القطع التى سمعها تتجاوب فى نفسه أحياناً . وكأنها تعزف داخل نفسه على أوتار ممتدة بين دمائه . ولكن من الغريب أنه إذا أراد أن يعبر عنها بصوته لم يكن يوفق . فهى

ترن فى نفسه رنيناً ، وقد اتخذت غوراً بعيداً فى تلك النفس ، بحيث لم تعد تقبل التعبير عنها بالصوت الإنسانى . وخيل إليه كلما مضى الوقت ، وظلت هذه الألحان ترن أحياناً فى نفسه ، إنها انقلبت ضوءاً داخلياً بدلا من أن تظل ألحاناً صوتية .

وتردد العازف على دارهم مرة ومرة ، وفى كل من هاتين المرتين يبلغ كمال أقصى السعادة بعد أن يظل صامتاً يستمع إلى هذه الألحان العجيبة من مقطوعات كبار الموسيقيين . ثم انقطع العازف عن المجىء إلى الدار ولعله سار فى تيار فنه ، تاركاً الأخ الأكبر الذى لم يكن فى الحقيقة محباً لهذا النوع من الألحان بذاته ، وليس فى نفسه من العمق ما يستطيع به تقدير هذه الموسيقى . وإنما هو قد تعلق بالعازف وقتاً قصيراً كما يتعلق الناس عادة بالشىء الجديد ، ثم تركه وسار فى الحياة الصاخبة التى يحبها . وهى حياة تعيش على أطراف الفن ولكنها تفر من الفن الحقيقى .

وكان كمال فى قراءاته قد اتجه نحو الأدب الأوربى وبدأ يتفهمه . ويجد إحياناً اشارات للموسيقى الغربية ، فصار لهذه الإشارات من تلك الأيام معنى آخر غير الذى وجده من قبل . فهى دائماً ترتبط فى نفسه بالأثر الذى تركته تلك الموسيقى التى سمعها من كمنجة العازف ، وثبتت فيه حتى صارت جزءاً

من الخلايا التى يتألف منها جسده . وصار إذا عثر على عبارة تشير إلى الموسيقى يحاول أن يتفهمها بالبحث عن معنى ألفاظها ، ولعله يبالغ فى معنى هذه العبارات ، ويتصور صورة لم يكن الكاتب ليقصدها .

هكذا نرى حياة كمال فى هذه الفترة : حياة بحث واستقراء واستفادة ودرس . ومما زاده فى هذا الاتجاه وصرفه إليه ، أن أخذ يخيم على الدار ذلك القلق الذى استولى على والدته وجعلها أكثر صمتاً مما هى عادة ، وزادها وجوماً . وتألم كمال لما انتابها ولكنه لم يجرؤ على سؤالها عن السبب ، وهو يعلم تمام العلم بأنها سوف تعتبر مثل هذا السؤال منه نوعاً من التطفل . فليس يعقل لمن هو فى سنه أن يتدخل فى شئون الدار وشئون والدته . ولقد ذهب ذلك العهد الذى استطاع فيه كمال أن يقترح على والده الالتحاق بالأزهر فضحك منه . فهو الآن صبى كبير ويجب أن يقدر ما يقال وما لا يقال . وفى الوقت ذاته لا يقام لرأيه وزن فلا يستشار فى أمر من الأمور .

والواقع أنها لو أرادت أن تشركه فى دخائل نفسها لما استطاع أن يفهم المشكلة . فهو أصغر سناً من أن يفهم . وكل ما هنالك أنه شعر بمجرد إحساساته أن والدته كثيرة التفكير فى أمر يهمها . فصار يتألم من أجلها وشعر بأنه قد يكون لهذا

الأمر دخل بالنفقات . فتجنب إرهاق والدته بطلب المال وصار لا يطلب شيئاً منه إلا إذا أعطى له .

ولقد سرّ حين رأى والدته تجد فى الأستاذ وفيق المعلم السابق لابنها الأكبر شخصاً تستطيع أن تعتمد عليه وصار يرتاح لزياراته سواء فى يوم الخميس أو غيره من الأيام .

ومما زاد فى الاطمئنان إليه ما وجده لدى أخيه الأكبر من سرور لرؤية الأستاذ وفيق ، ومصاحبة له فى سهراته .

وزاده رضى أنه وجد والدته مغتبطة بهذه الصحبة مطمئنة لها ، لأنها تطمئن إلى وفيق ، وتلمس به فيه من الرزانة ما لا تجده فى ابنها الأكبر

وعلى ذلك صار كمال يرتقب هذه الزيارات كما ترقبها والدته ، ويساعدها أحياناً فى ترتيب المائدة إذا ما ألحت على الأستاذ وفيق فى تناول طعامه فى الدار ، ويتخذ حيئذ كمال مجلسه إلى جانب الأستاذ وفيق وهو يفيض بشراً ، كما تجلس أخته إلى الجانب الآخر ، وتجلس الأم فى مواجهة وفيق ويتناول الأربعة طعاماً شهياً . ويأكل كمال أكثر مما يأكل عادة حين تكون المائدة قاصرة على أخته ووالدته . فإن تلك الصحبة تزيد فى شهيته ولعلها تزيد فى شهيتهم جميعاً . وكان الأستاذ وفيق أكولا بالنسبة للأسرة . فهم جميعاً قليلو الأكل بالرغم من أن الوالدة فى تلك

الفترة أخذت تميل إلى البدانة شيئاً ما .

أما أكلتهم الفاخرة فهى عادة وجبة الغداء بعد ظهر يوم الجمعة وهى التى يشاركهم فيها أخوهم الأكبر .

وهكذا مرّت الشهور حتى صار هذا النظام فى الأيام مألوفاً، وصار من الطبيعى أن يشارك الأستاذ وفيق الأسرة فى طعامها ؛ فإذا لم يفعل فهو الأمر غير المألوف ويدور الحديث فى أثناء الطعام ليناً سهلا بين الأم والابن الأكبر والمعلم . فالابن الأكبر بالرغم من أنه شب حتى كاد يبلغ مبلغ الرجال لا يزال محتفظاً بميله نحو المعاكسة شأنه فى طفولته. ولكنها اتخذت الآن مظهر المداعبة . فهو لا يمل الفكاهة ولا يترك فرصة للمزاح حتى مع والدته أحياناً . فتضحك أمينة هانم منه وتلومه على المداعبات إذا أثقل بها بعض الشيء على أحد المشاركين فى الأكل. والأستاذ وفيق يضحك من هذه المداعبات فى غير كلفة ويشارك تلميذه السابق فيها . ولكن طريقه الأستاذ وفيق المفضلة لديه هى رواية القصص الفكهة . فهو يحسن روايتها فيجد من سامعيه آذاناً صاغية تضحك لكل فكاهة ونكتة . وهكذا كانت تلك الأوقات سعيدة لدى كمال وإن لم يشترك فى الفكاهة . فإن كمالا بطبيعته قليل الكلام ولكنه ليس مع ذلك عبوساً بل يضحك سريعاً لأية نادرة تبعث على الضحك . وإذا حالت قلة كلامه بينه وبين

أن يكون عضواً مشتركاً فى الحديث فإن رغبته فى الإصغاء وما يبدو على وجهه من البشر وما يبدو على ثغره من ابتسامة تكاد تكون دائمة فتظهر من ثنايا شفتيه وفمه العريض أسنان صغيرة بيضاء وما يبدو فى عينيه من حب للفكاهة وإقبال عليها كل ذلك يجعله شريكاً محبوباً فى مثل هذه الاجتماعات .

هكذا سارت حياة كمال فى هذه الفترة فهو يحلم بقراءاته ويعيش بخياله فيما سمعه من موسيقى عجيبة ويحيا بين هذه الأسرة التى تتألف الآن من خمسة بينهم المعلم والتى تجتمع أكثر من مرة فى الأسبوع على مائدة الطعام وقد يجتمع شملها أكثر من مرة ويقوم بينها ما يدل على وفاق . غير أن هنالك فترات يستولى فيها الهم والكدر على الأم وتكون مقطبة الجبين مربدة الوجه منطوية على نفسها وحينئذ تعلو حياة الصغير غمامة من القلق . ولكنه أخذ يلاحظ فى مبدأ الأمر أن هذا الضيق الذى ينتاب الوالدة ينفرج إذا ما اقترب يوم الخميس وهو اليوم الذى ينتظر فيه حضور الابن الأكبر من المدرسة ومبيته بالدار ، وينفرج أحياناً على أثر زيارة فى وسط الأسبوع من الأستاذ وفيق وتحدثه طويلا إلى الوالدة فكأنها تجد بعد هذا الحديث شيئاً من الراحة والرضا أو التسلم إلى الحياة .

ولكنه بدأ يلاحظ أن هذا الضيق ينفرج أحياناً قبل مجىء

الأستاذ وفيق إذا كان مجيئه مرتقباً أو بمجرد وصوله إذا لم يكن هذا المجيء مرتقباً . ولأمر ما أخذ كمال يشعر بعدم ارتياح إلى هذا الاختلاف فى مسلك الأم . وهو لم يستطع تعليل عدم الارتياح الذى عراه . وكان يستطيع أن يفهم أن ارتقاب مجيء أخيه الأكبر يزيل ما جثم على عقل الأم من هموم . ويفهم أن أحاديث الأستاذ وفيق وطرق إقناعه تؤثر فى الأم فتبدد ما بنفسها من غيوم . ولكنه لم يفهم لماذا تبدد غيوم الأم لمجرد حضور الأستاذ وفيق .

وبقدر ما شعر بأن مجرد قدوم الأستاذ وفيق يلقى ترحاباً من الأم ، شعر بانقباض فى نفسه عندما زاد هذا الترحاب . وتحول إلى ارتقاب من الأم لحضوره فتزيد نفسه انقباضاً عند حضوره إلى الدار .

وتغيرت أطوار كمال . وكان أحياناً يراجع نفسه ويلومها ويحاول أن يعرف كنه هذا الانقباض . فلم يجد له سبباً معقولا . ويحاول أن يلتمس فى مسلك والدته أو فى مسلك الأستاذ وفيق ما يبرر هذا التحول فى نفسه فلم يجد لنفسه عذراً .

وأخذ فى مبدأ الأمر وبعد أن أعياه التماس الأسباب أن يجد لنفسه مخرجاً أو أن يعود إلى حالته الأولى فلم يصل إلى هذا أو ذاك . وكل ما أمكنه أن يقنع به نفسه أن حالته الطارئة لم

يلحظها أحد فلم تشعر بها الأم ولم يشعر بها الأستاذ وفيق . وهذه هى غاية ما وصل إليه من أمل . فإنه يتضايق جداً لو شعر أحد منهما بما تنطوى عليه نفسه . فهو يسير فى شعوره هذا على غير سبب ملموس . وهذا ما دعاه إلى الاعتقاد بأن به مرضاً خفياً . ولعل هنالك شخصاً واحداً شعر شيئاً ما بما تنطوى عليه نفسه . وهذا الشخص هو الفتاة الصغيرة التى كانت تشاركه اللعب وهو طفل وتنضم إلى أخيه الأكبر والأقوى فى عبث الإخوة ، وهى تكبره بسنة واحدة. لعلها شعرت بشىء ما مما تنطوى عليه نفسه . فهى أحياناً تفاجئه فى وحدته وهو فى تفكير عميق فتضمه إلى صدرها وتقبله قبلة حنو وفهم .

٧

الجدة

مضى على كمال نحو السنة لم ير فيها جدته ثم بلغه أن الجدة عادت إلى دارها فى الإسكندرية . وأبلغته أمه حين وردت إليها الرسائل من والدتها بأنها جاءت ببعض الهدايا لهم وأنها كانت تهرع إلى القاهرة لو لم تشعر بشىء من التعب . ولكن كمال الآن وقد كبرت سنه لم يعد كبير الاهتمام بهدايا جدته كشأنه وهو طفل صغير . وهو يذكر أن جدته جاءت من رحلة لها فى بلاد الشام محملة له ولإخوته بنوع من القماش هو نسيج حريرى أبيض فيه خطوط ذهبية ، فصنع منها له ولأخيه قميص يلبسه بدل السترة تحت سرواله القصير وتمنطق بحزام أزرق اللون فبدا كما بدا أخوه فى حلة قشيبة إذ ربط لهما فوق هذا القميص الحريرى رباط للرقبة من الحرير الأزرق أيضاً مما جعل لبسهما لافتاً للأنظار بروائه وأناقته . أما الآن فهو لا يطمع فى مثل هذا القماش الحريرى لأنه لا يصلح إلا للأطفال . وإذا أتت الجدة بنوع يصلح أن يكون قميصاً تحت السترة فلا بد أن يكون بعيداً عن الزخرف وعن هذه الخطوط الذهبية .

وجاءت الجدة أيضاً من رحلة أخرى بنوع من الصحاف المصنوعة فى إستامبول ، وهى من الزجاج ذى اللون الأزرق والأصفر رسمت عليها نقوش بارزة فى أشكال هندسية جميلة . وهذه الصحاف جذبت نظر كمال كما جذبت أنظار الضيوف الذين لهم ذوق مترف . وهى لوضع الفاكهة المطبوخة وهى تصطبغ بلون شرابها إذا كان الشراب ذا لون أحمر قان .

أما الآن فهو لا ينتظر غير رؤية جدته ، ولا يهمه أن تذكر الهدايا أو أن تخبره أمه بأنها أشارت إلى الهدايا فى رسالتها ، والظاهر أن الرسائل كانت متبادلة بين أمه ووالدتها وهى رسائل طويلة يرى والدته وقد أخذت فى تلاوتها ثم عمدت بعد التلاوة إلى التفكير . ويتعجب كمال لذلك وقد أحس بأن ثمة أمراً هاماً تتراسل الأم والجدة فى شأنه . وكان كمال يجلس إلى جانب والدته حين تأتيها رسالة من الإسكندرية وهو ينظر إلى وجهها متطلعاً وهى تقرأ الرسالة باهتمام ثم يجدها تضع الرسالة إلى جانبها فيرقبها متطلعاً حين يراها وقد عمدت إلى الصمت والتفكير .

لم ير كمال أمه وهى تكتب رسائلها رداً على رسائل والدتها . ولعلها تفعل ذلك فى ساعات انصرافه إلى المدرسة أو عندما تأوى إلى مخدعها . ولكن كثرة الرسائل التى ترد من الجدة ولم يكن من العادة فيما قبل أن ترد الرسائل من الإسكندرية أكثر

من مرة فى الشهر حمل كمال على الاعتقاد بأن حديثاً طويلا وحواراً يدور بينهما بالتراسل .

وأخيراً جاء يوم أخبرته فيه والدته أن الجدة سوف تأتى إلى القاهرة بعد يوم أو يومين . وكان سروره عظيما لرؤيتها فهو شديد الشوق إليها . ولكن سروره هذه المرة لم يكن خالصاً كشأنه فى المرات السابقة بل يشوبه شيء من الجد وشيء من التوقع لا يعلم سببه .

ولم تحضر الجدة فى اليوم التالى . ولكن فى اليوم الذى بعده عاد من المدرسة وهو يوم خميس فإذا به يجد جدته جالسة ترنو إليه . فألقى بنفسه فى أحضانها وسرّ فى تلك اللحظة سروراً عظيما خالصاً لا تشوبه شائبة . واحتضنته الجدة وظلت تقبله ويبادلها القبلات . وجلس إلى جانبها وهو لا يريد أن ينفصل عنها . وجرى بينه وبينها حديث عذب يدل على العاطفة العميقة التى يشعر بها نحو جدته وهى تشعر بمثلها وجلست والدته تراقبها وعلى وجهها شيء من الارتياح لم يبد عليه من زمن بعيد . وكان من الطبيعى أن تكون رؤية والدتها قد بعثت فيها شيئاً من الراحة ، ونامت هواجسها وهمومها لوقت قصير . وعادت الجدة تستأنف حديثها مع ابنتها وهى تحيط خصر كمال بذراعيها وهو جالس إلى جانبها . وفى تلك الفترة استطاع وهو ساكت يصغى أن

يتفرس فى جدته فبدا له أن الجدة شاخت كثيراً . وبدا عليها شيء من الهزال . والجدة لا تستعمل شيئاً من المساحيق أو الأصباغ مطلقاً وبشرتها الناعمة تبدو صافية كبشرة الطفل الصغير . وهى فى هذه المرة لا تزال صافية . ولكن تلك الحمرة البسيطة التى تبدو من خلال جلدها كما يبدو الشراب الأحمر ، إذا وضع فى كوبة من زجاج مطفأ ، قد اعتراها الكثير من التغيير . فصار لون جلدها كالشمع الرائق المائل قليلا إلى الاصفرار . وأثر الهزال عليها فتجعدت أساريرها . وذلك لم ينقص من وسامتها بل زادها وقاراً . وبدت خيوط كثيرة من الشعر الأبيض خلال رأسها أما عيناهاالرماديتان فلم يزل فيهما تلك النظرة الأخاذة التى يحبها فى عينى جدته ، وهى تنبيء عن صفاء نفسها ومعين الحب التى تختزنه لمن يلوذ بها .

ودار الحديث فى هذه الجلسة طبيعياً مرسلا ، تصف فيه الجدة أبناء الأصدقاء فى الأسر المتصلة بها فى الإسكندرية ، وتتساءل عن أحوال دراسة الغلام وأخته ، وتتساءل عن الوقت الذى سترى فيه الأخ الكبير . وتنتقل فى ذلك الحديث الذى لا يشبع منه وهو جالس إلى جانب جدته .

وظهر أن الجدة جاءت بهدايا عديدة بعضها لوالدته وأخته ، وهى أنواع من الأقمشة المطرزة البديعة . أما هو فنصيبه أنواع

فاخرة من الشكولاتة المحشوة بعجينة اللوز والفستق ، ونوع من الجوز مثلث يحبه كثيراً ، وكمية كبيرة من الفواكه المسكرة .

وأشاع وجود الجدة السرور فى جوانب الدار وكان يوم الجمعة التالى يوماً سعيداً ، جاء فيه الأخ الأكبر من مدرسته ولاحظ كمال أن الأستاذ وفيق لم يظهر فى البيت ، ولم يحضر فى الغداء الذى صار أشبه بمأدبة : لا بكمية الأكل وإنما بأناقته وبالحديث العذب الذى يدور حوله .

وهكذا مضت أسابيع والجدة مقيمة معهم والحياة فى الدار تغيرت كثيراً عما سادها فى السنوات الأخيرة من وجوم ولكن لاحظ كمال أن الجدة أحياناً تصاب بذلك المرض الذى انتشر فى الدار أخيراً . فإنه باغتها وهى مفكرة . ولكنها لم تكد تراه حتى انبسطت أساريرها ، وأظهرت له حبها وحنوها . فهدأت نفسه وخلد إلى هذا الحب ينعم به ويشيع فى نفسه الرضا مكتفياً بيومه عن غده .

وبعد هذه الأسابيع فوجىء بأمر آخر . إذ عاد ذات يوم من المدرسة فوجد خالته المقيمة مع والدتها فى الإسكندرية قد حضرت إلى القاهرة . واجتمع شمل الأسرة فى الدار ، وخيل إليه أن الهدوء والارتياح قد سادها ، ولكن غمامة كانت تظل القلوب . وبين ما يبدو فى أحاديث الأسرة من الاسترسال

الطبيعى البعيد عن التكلف ، كانت الحياة وربما العيون تنم عن شيء يشغل النفوس .

وعلم كمال بعد قليل أن الجدة قدمت إلى القاهرة لتقيم فيها. وليس ذلك بالأمر الغريب عليه . فكثيراً ما تقيم الجدة الشهر والشهرين . ولكنها فى هذه المرة اعتزمت أن تتخذ منزلا خاصاً لها ، وأعلنت أنها ستقيم خمسة أشهر إلى أن يحل الصيف ، فيذهب مع جدته للإقامة فى دار الإسكندرية . وهى تسعى لأن تكون الدار التى تستأجرها قريبة من المدرسة التى يذهب إليها حتى لا يتكلف مشقة الذهاب إلى دراسته اليومية . وهذا النظام غريب ، ولو أنه لم يجد فيه غرابة . فقد تعود أن يكون إلى جانب جدته ما دامت مقيمة فى القاهرة . وهو الآن على أنه شب وكبر قد ترك كل علاقاته بأصدقائه وزملائه ، وترك كل وسائل التسلية لكى يبقى إلى جانبها . فلم يكن غريباً عليه إذن أن تختار الدار بحيث يكون مقيما فيها مع جدته . وقد ظن فى بادىء الأمر أن والدته ربما تنتقل مع جدته إلى دار واحدة . ولكن لم تلبث هذه الفكرة أن تبددت أولا لأنه لم يجد فى كلام الجدة والأم ما يشعر بأن والدته سوف تنتقل إلى الدار الجديدة ، وثانياً لأنه إذ ردد الفكرة فى هذا الأمر وجد أن هذا الانتقال صعب لا سيما بعد أن اختارت الجدة مسكناً صغيراً وإن كان

مريحاً ، فى إحدى العمارات فى حى عابدين القريب من مدرسته وهو لا يمكن أن يتسع لأثاث دارهم .

وجاء اليوم الذى انتقلت فيه الجدة إلى المسكن الجديد بعد أن ابتاعت أثاثاً بسيطاً، ونظمته بحيث خصصت له غرفة مستقلة فيها سرير ومكتبة ونقلت كتبه . أما خالته وأخته فاعتزمتا الانتقال إلى الإسكندرية لتقيما مع الجارية والطاهية . وربما تأتيان وقتاً بعد وقت ولكنهما تتخذان الإسكندرية مقاماً إلى الصيف .

وفى يوم الجمعة كان كمال يزور والدته وتتردد الوالدة على الجدة فى أثناء الأسبوع . وعندما زار والدته فى أول أسبوع وجد أخاه وقد جاء من مدرسته . ووجد الأستاذ وفيق حيث تناولوا الغداء معاً . وبعد الظهر عاد إلى جدته واصطحب أخاه ليرى الجدة أيضاً .

لا يمل كمال الحياة مع جدته بل يرتاح إلى ذلك راحة كبيرة وهى تتلمس كل رغائبه قبل أن ينطق بها فى غير حاجة لأن يقول شيئاً ، وترعاه رعاية كبيرة دون صخب ؛ فالهدوء يسيطر على الدار . وقد اعتاد أن يبقى طويلا فى المنزل بعكس ما كان يحدث فى الأيام التى عاش فيها مع والدته حين استولى عليها القلق .

ولاحظ أن والدته فى زياراتها لهما وفى زياراته لها ، قد ذهب عنها القلق كثيراً . ولكن حل محله نوع من عدم الرضا لعله أثر انشغال البال فى أمر هى قادمة عليه ولم توفق إلى أن تقنع نفسها بسلامة الخطوة التى تتخذها .

ولاحظ أيضاً أن الجدة تنظر أحياناً إلى ابنتها بعين ملؤها الأسى وإن لم تفه أمامه بكلمة يشعر منها بأى لوم لوالدته ؛ والغالب أنها لا تفعل فى غيبته ، وليس من طبع الجدة أن تسيطر ولا أن تتحكم فى أحد حتى بناتها . ربما كانت فى الشباب عنيفة مسيطرة، ولكن انقلب ذلك مع مرور الزمن حلاوة فى الخلق وهدوءاً .

وقد تبين له أنها مرتاحة إلى انتقالها للقاهرة وإلى أنها سكنت مع حبيبها كمال الصغير . ولعل الجدة التى لم ترزق ولداً ، بل كان أولادها من البنات ، حققت أمنية شبابها فى هذا الصبى الذى هو ابن بنتها . فهى تجد فيه عوضاً عما حرمته . وهى تحيطه بكل عناية وتتحدث إليه أحياناً كالملطفة ، وتتحدث إليه ذاكرة ما تنتظر له من مستقبل فى الحياة ، وتبسط له الآمال التى ترجو أن تتحقق وهى إلى جانبه . ويتفتح لها ذهنه حين تتكلم عن هذه الآمال . وبدأ يخرج من تلك الأحلام الكئيبة التى تعود أن يفكر فيها فى وحدته مع والدته ، فإذا الحياة تبدو

له فى هذه الأيام بهيجة وردية اللون .

وكانت الجدة لكثرة أسفارها وانتقالاتها قد اكتسبت فى الحياة خبرة لا توجد لدى معاصراتها من السيدات المصريات . فى حديثها طلاوة لا يجدها الغلام إلا فى الكتب التى يكب على قراءتها فى تلك الأيام . ويجب أن يروى ما فيها لجدته لأن أكثر هذه الكتب باللغة الإنجليزية . وهى عبارة عن قصص مما أعد للأطفال . فى ذلك الوقت أخذ يقرأ الترجمة الإنجليزية لقصص هانس أندرسن ، وفى ذلك الوقت أخذ يتلو قصص الأطفال للكاتب الأمريكى هاوثورن . وهى قصص تصف حياة أبطال الأساطير اليونانية . وكأن اختياره وابتداؤه فى تلاوة القصص موفقاً . فإن قصص الأساطير اليونانية هى مفتاح لكل أدب أوربى . ولا شك فى أن الفضل فى هذا الاختيار لأستاذه فى اللغة الإنجليزية . فهو الذى أعاره هذه الكتب وأعطاه قائمة ببضعة كتب ليشتريها . وبذلك تفتحت نفسه للقراءة فى تلك الأيام ورأى حافزاً اهتمام جدته عند ما يقص عليها إحدى القصص التى قرأها وكانت الجدة تجلس إلى جانبه طويلا هادئة ساكنة وهى تراه يقرأ فإذا قامت لأمر من أمور الدار قامت فى هدوء تحاول ألا تشغله عن قراءته . وكانت حياته إلى جانبها غنية حقاً بما يتوافر لجسمه من راحة ولذهنه من هدوء .

وابتدأ يشعر بشيء من الأسف إذا ما حل يوم الجمعة لأنه يضيع ذلك اليوم فى رأيه فيما لا يفيد ؛ وإن خفف من ذلك الأسف رؤيته لوالدته وأخيه الأكبر .

فهو بعد يحب والدته حباً كبيراً وإن خيل إليه أنه يحب جدته أكثر منها . وهو بعد يشتاق لرؤية أخيه الأكبر، وإن باعدت الطريق التى اتخذها فى حياته بين تذكير الصبى والشاب. فالصبى بطبيعته نازع إلى أمور الذهن وحب التأمل . والأخ الأكبر ابتعد عن الكتب مع ميله القليل إليها من قبل وانغمس فى الحياة الاجتماعية . فهو لا يهتم إلا لأناقة ملابسه والتمتع باللهو فى أيام خروجه من المدرسة ويجد فى الأستاذ وفيق زميلا أكبر منه سناً .

وقد شعر الصبى أن الأستاذ وفيق ليس أقل ميلا إلى اللهو من أخيه وإن كان لا يظهر بمظهر المتهالك على اللهو بل إذا دعاه الأخ إلى النزهة معه يتمنع ويبدى صدوداً ولكن كمال أحس أنه إنما يفعل ذلك لرغبة فى نفسه ، هى أن يبدو طاهر الذيل أمام الوالدة وأحياناً يتخذ دور الواعظ . ومع ذلك فإن هذا الواعظ لا يقل انتهاكاً لما يعظ به عن أخيه ، الذى يتلقى هذا الوعظ بابتسامة ساخرة تدل على أنه يعلم من أمر الأستاذ وفيق أكثر مما يجب ، وما يعلمه يزيده تعلقاً به ورغبة فى مصاحبته .

كانت الوالدة أحياناً هى التى تنصح الأستاذ وفيق باصطحاب غلامها لعله يخفف من غلوائه وحينئذ ينطلق الاثنان فى صحبة ، يشعر كمال بمقدار ما فيها من ألفة .

وهذا الشعور لا يزيد من قدر الأستاذ وفيق فى عينيه بل ينقص من قدره وأخذ يحس باشمئزاز نحوه . ولعله بالغ فى هذا الإحساس لأنه فى الواقع أخذ يعزو نقائص أخيه إلى الأستاذ وفيق ، ويظن أنه لا بوعد بين أخيه و بين الأستاذ وفيق لانقلب أخوه ملاكاً طاهراً .

لم تكن هذه الفكرة صائبة . ولكنه بالرغم من أنه الآن صبى فارق الطفولة فإنه لم يزل طفلا فى علمه بالحياة . ولم تزل الحياة لديه سراً غامضاً . ولو أنه نشأ فى أسرة غير تلك الأسرة التى يتمتع فيها برغد العيش ، أو هى على الأقل تحاول إلا يشعر أبناؤها بمتاعب الحياة إذا حل بها الضيق ، لعلم من الحياة أكثر مما علم وخبر منها أكثر مما خبر . ولكن هذه الأسرة التى ترى أن ينصرف أبناؤها فى طفولتهم وصباهم إلى دراساتهم ، لم تكن لتمده بهذه الخبرة فى الحياة .

غير أن الحياة لا يمكن أن تتركه هكذا جاهلا . فإذا كانت الأسرة لا تريد أن تقحمه فى غمارها ، فالحياة نفسها تقتحم عليه هدوءه وسكونه .

فنى ذات يوم جمعة ، وكانت أخته قد عادت منذ أربعة أيام من الإسكندرية لزيارة جدتها وزيارته مصحوبة بالخالة ، دعا أخته إلى أن يصطحبها فى تلك الجمعة لزيارة والدتهما ، ولكن الأخت التى لم تر الوالدة منذ سفرها إلى الإسكندرية تمنعت . واندهش كمال لهذا التمنع . وقصد جدته يستطلعها ، فإذا بجدته تشير عليه بأن يظل هذا اليوم مع أخته ، ولا يذهب لزيارة والدته فإنها مشغولة فى ذلك اليوم .

فزاد عجبه وإن لم يقل شيئاً ، وبقى فى دار جدته فى ذلك اليوم يتحدث إلى أخته ويداعبها ، وإن شعر بظلام يملأ نفسه .

وفى ذلك المساء علم تدريجياً من أخته أن والدته عقدت زواجها فى ذلك اليوم وأنها تزوجت من الأستاذ وفيق معلم أخيه . . .

٨

زواج

لعل كمال لم يشعر فى سنى حياته الاثنتى عشرة بمثل الألم الذى شعر به عند ما علم أن والدته تتزوج للمرة الثانية . إن هذه الفكرة بعيدة عن ذهنه فلم يكن ليتصور أن هذه الوالدة تستطيع أن تتخذ زوجاً بعد أبيه ، وهى مسألة عجيبة لديه ولغز لا يستطيع حله ولا وصفه . فهو يعتقد أن والدته مجموعة من الصفات الفاضلة الطاهرة . فإذا به يراها فى عينيه مثال الخديعة والخيانة . لم يفكر لحظة أن الخديعة لا تكون إلا حيث يكون هنالك مخدوع ، ولم يفكر لحظة أن الوالدة لم تخن أمانة أحد ، فزوجها الأول قد غيب فى القبر منذ نيف وسبع سنوات وصبرت طول هذا الوقت على مكاره الحياة ، وصبرت على الوحدة والقلق فكيف يمكن أن توصف بالخيانة ؟

ولكن « كمال » لم يفكر هذا التفكير فهى فى نظره ، خانت ذلك الرجل الذى كان فى نظره أيضاً ، مثال الفضيلة . لم يفكر لحظة فى أنه لا يعلم من أمر أبيه شيئاً . فقد غادر والده هذه الحياة وهو لا يزال طفلا ، وكان الوالد فى السنوات

الأخيرة من حياته دائم التردد بين الصحة والمرض . فإذا أجهد كمال الذاكرة لم يجد من صورة هذا الوالد إلا شبحاً باهتاً وشيخاً ضعيفاً ولكنه مع ذلك لا ينسى القليل من الابتسامات التى شمله بها الشيخ ، ولا ينسى تلك الهدايا من الحلوى التى تملأ غرف الأطفال وينعمون بها . تلك أمور ماثلة فى عقله : أما غير تلك ، وأما قسمات وجه والده ، فهو لا يكاد يتذكرها . ومع ذلك سمع من جدته ثناء على هذا الوالد . فانطبعت الكلمات فى ذهنه وسمع من والدته ترحماً على هذا الماضى فانطبعت الكلمات فى ذهنه . ومن هذه العبارات والقصص المبعثرة تجمعت فى الذهن صورة ، ربما لم تكن الحقيقة . ولكنها لديه صورة جميلة محببة على كل حال . وصار يعتقد كل الاعتقاد أن الوالدة تكن لزوجها الأول احتراماً ، وصار ينتظر أن تكن له الوفاء أيضاً حتى فى مماته ، وحتى بعد تلك السنوات الطويلة ولكنه يرى الآن أن آماله فى والدته قد انهارت ، فهلا يعد ما ارتكبته خيانة ؟

ومع ذلك يمكن أن يقال إنها ارتكبت خيانة فى حق أولادها أيضاً : فهى قد أقحمت فى حياتهم رجلا غريباً . وهو لم يفكر لحظة فى أنه يعرف الأستاذ وفيق منذ زمن مديد ، فقد صار هذا السيد فى نظره منذ هذه اللحظة غريباً ، بل عدواً يستحق الكراهية.

انهار أمام عينيه ذلك التمثال الطاهر الذى يتمثل فيه صورة والدته ، فأى شىء حملها على هذا الزواج إن لم يكن شهوة مثل تلك الشهوة التى تميل بالناس إلى الدعارة ؟ أى نعم إلى الدعارة فليست هنالك كلمة أقرب إلى وصف مركزها من هذه الكلمة ، يقول الناس إن الزواج أمر مشروع ولكن كيف يكون مشروعاً والابن يقابله بهذا الألم العميق ، والجدة تقابله بهذا الوجوم .

لم يفكر لحظة أن والدته عاشت سبع سنوات ترعى أولادها وحيدة فى هذه الحياة . وأنها أخذت فى السنوات الأخيرة تشعر كغريق يرتفع مد الحياة من حوله فهو يعلم مصيره المحتوم . ولم يفكر لحظة فيما شمل حياتها من وحدة مريعة بحيث صارت لا تحتمل تلك الوحدة . فأولادها لم يكبروا بعد إلى الدرجة التى يستطيعون فيها المساعدة فى تدبير أمورها. فهو فى تفكيره لا يرى كل ذلك وإنما يرى أنها خائنة : خائنة لذكرى ذلك العزيز الراحل .

لم يعنَ له لحظة أن هذه السيدة قضى عليها أن تتزوج من رجل يكاد يكون فى عمر أبيها . وأنها لم تنعم بعشرة رجل فى سنها تستطيع أن تتفاهم معه . وأنها فى حياتها مع زوجها الأول تعامله معاملة الوالد وهو عطوف عليها كما يعطف الوالد على ابنته .

فهى لم تنظر إليه كزميل ولم تعرف الزمالة فى الزواج . وإنما تنظر إليه كرئيس يسيرها وفق إرادته وإن كان بها رئيفاً . وقد تتطلع إلى أن تجرب الزمالة فى الزواج : ولكن هل هى فعلت ؟ إنها بزواجها من الأستاذ وفيق قد عكست الآية . أجل إنها ليست فى سن والدته ولكنها تكبره بحيث يصح أن تكون له أختاً كبرى من تلك الأخوات اللاتى يسيطرن فى الدور على إخوتهن الصغار ، ويسهرن على تربيتهن إذا شاخت الأم وصارت عاجزة عن ذلك . فهى بهذا الزواج لم تجد الزميل ، وهى بهذا الزواج سببت ألماً لأطفالها ولكن هل فكرت هى فى ذلك ؟

لم يفكر كمال لحظة فى أمه وموقفها من هذا الزواج ، ولم يحاول أن ينظر إلى هذه المسألة نظرتها . فهى شأن كل مخلوق تبحث عن السعادة ولربما فكرت فى أن سعادتها تتحقق بالزواج من هذا الشاب الذى اختارته . ولعلها فكرت طويلا أنها عرفت الحنان ولم تعرف الحب . وكانت تخشى معارضة أولادها ولكنها لم تجد من الابن الكبير أية معارضة بل وجدت تأييداً وتشجيعاً . وهذا التشجيع مما يتفق مع رغبتها فلم تعمل حساباً لآراء ولديها الصغيرين بل من الطبيعى ألا تفكر فى استشارتهما فى هذا الأمر . أجل إنها وجدت ممانعة واعتراضاً من والدتها ومن أختيها ، ولكن العاطفة تغلبت على العقل . وهى

بطبيعتها الكتومة ليست سهلة القياد كما يبدو لأول وهلة ، فإن سكونها ينطوى على نفس ثائرة . ولقد رأت أنها خضعت طويلا للتقاليد وبدت لها الحياة الماضية التى نعمت بها فى ظل الزوج الشيخ حياة أسر . فهى إذن لم تعرف معنى الزواج ولم تكن موافقتها إلا خضوعاً للتقاليد . ولم تشعر مطلقاً نحو زوجها بأكثر مما تشعر به نحو والدها . وشتان ما بين هذا الشعور وما أخذت تشعر به فى الأشهر الأخيرة نحو الأستاذ وفيق . ذلك الذى أطل على الظلام الحالك فى حياتها فبدده ، وإذا هو ينقلب نوراً . ذلك الذى أخذت تركن إليه فإذا هى بعد حين تشعر بأنها لا تستطيع أن تعيش بعيدة عنه .

ولكنها مع ذلك لم تفكر هى أيضاً فى موقفها الغريب منه ، ولم تفكر قط بأن مركزه منها هو مركزها من زوجها الأول . ولكن الموقف يختلف فى شيء واحد ، هو أن الأستاذ وفيق إذ يتودد إليها ويتقرب منها ، يحاول أن يصل إلى الغرض الذى رأى أخيراً أن يصل إليه وهو أن يتزوج منها . لا نستطيع أن نقول إنه كان خالصاً فى حبه ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه شأن جميع الناس ينشد السعادة ، ويرى أن السعادة سوف تتحقق إلى جانبها .

وهو منتبه كل الانتباه إلى هذا الفارق فى السن ، ولكنه فى

الوقت ذاته ينظر إليها على أنها تحفة من التحف . فهو لم ير فى أسرته من هى فى مثل ملاحة هذه السيدة . وهو فى أسرته لم يعرف امرأة فى مثل رجاحة عقلها وتربيتها المنزلية . فأثرت عليه السيدة وتعلق بها ووثق أنه يجد رغداً فى حياته إلى جانبها . وهى فضلا عن ذلك سيدة ميسورة الحال وإن بدت أمورها مرتبكة . وهو يطمع فى تسوية هذه الأمور ، وحينئذ يعرف كيف يصيب من ثروتها البسيطة . وإن كانت عظيمة لديه بالنسبة لحاله وحال أسرته . فكان سعيداً بهذا الزواج وعمل له فى تدبير وفى موالاة ، فاكتسب ثقتها وأخذ يشير عليها بما فيه صالحها . فلما ركنت إليه ووجدت أن آراءه صائبة ، وهى التى لا تعرف فى أمور المال شيئاً كأكثر السيدات اعتمدت عليه . فقبل ذلك عن طيب خاطر . وصار يتدخل فى حياتها شيئاً فشيئاً إلى أن صار له مركز خاص لديها . وهو مع ذلك دائم الرعاية لها . ولكنه لم يسلك المسلك الذى يتخذه عادة زملاؤه . فلم يحاول أن يظهر لها الحب والتوله ، ولو فعل لجفلت منه بل كان لا يظهر غير الرجولة والشهامة ومحاولة خدمتها . وبذلك انفتح له قلبها فإذا ما وثق من استيلائه على هذا القلب فاتحها فى أمر الزواج .

أما كمال فلم يقدر كل هذا أو شيئاً من هذا ، فهو على

نضجه أصغر سناً من أن يطالب بتقدير الأمور وزنتها بميزان . وهو أصغر سناً من أن يتبين وجهة نظر الآخرين . فى سن الطفولة والصبا والشباب لا ينظر الإنسان إلا إلى نفسه ، فالعالم من حوله منحصر فى نفسه والناس من حوله هم كائنات اعتبارية تكون أهميتها بقدر اتصالهم به وتأثيرهم فى حياته . فأصدقاؤه هم أصدقاء ، لأنه يعتقد فيهم أنهم يخلصون له الود ، لا لأنه يخلص لهم الود هو نفسه . وخصومه هم خصوم لأنهم لا يعطفون عليه وينتقدونه ، ولا يبحث عن السبب فى ذلك . وأقرب الناس إليه ممن حوله الذين يرعون مصالحه . وليس للإنسان فى هذه السن تقدير لظروف الناس وأحوالهم ، أما فى سن الشيخوخة فالمرء كالمتفرج الذى يستطيع الحكم على الأمور لأنه لا يقف على خشبة التمثيل . قد يتأثر أحياناً وقد يفقد ميزان الحكم ، ولكنه لا شك راجع إلى الحياة الحقيقية وما فيها من تلاطم .

وهكذا لم يهتم كمال مطلقاً لموقف والدته ، والظروف التى تحيط بها ، ولم يلتمس لها الأعذار . فيشعر أن القلق الذى استولى عليها فى السنوات الأخيرة لا بد أن يؤدى بها إلى تغيير فى حياتها . وكل ما رآه كمال هو الوالدة التى تهجر أولادها من أجل رجل غريب ، والوالدة التى تخون ذكرى زوجها الأول الذى كان مثال الطيبة وهي تذكره دائماً بالخير . وأى إثم أكبر

من خيانة هذه الذكرى ؟ وأى جحود أعظم من أن تقابل الإحسان بالإساءة ؟ وأى قسوة أفظع من أن تطرح أولادها جانباً وتحرمهم من الحنان الذى هم فى أشد الحاجة إليه ؟

ومما زاد كمال عقيدة فى رأيه ما رآه من تجهم الجدة وغضبها. فلو أن عمل الوالدة صائب لما غضبت والدتها لهذا الأمر. ولم يفكر كمال لحظة فى أن الجدة تغلبت عليها العاطفة فحكمت على موقف ابنتها بحكم العاطفة دون حكم العقل .

لم يفكر كمال فى هذا ولا ينتظر منه أن يفكر . وكل ما شعر به أنه فقد والدته وهى خسارة أورثته حزناً عميقاً ولا يمتزج هذا الحزن بالعطف ، بل مزاجه شعور غضب أليم .

٩

قطيعة

سارت الحياة فى موكبها ، وخفت حدة الألم الذى شعر به كمال عند زواج والدته ، ومضت شهور دون أن يراها . وكل ما يسمعه عنها نتف من الأخبار . وإذا سأله أحد معارف الأسرة عن والدته وعن صحتها يجيب إجابة مصطنعة بأنها فى خير صحة ، ويحاول أن يغير الموضوع . فهو لا يريد أن يطلع الأجانب على سره ، ولا يريد أن يظهر بمظهر الضيق من موقف والدته ومقاطعته لها ، ولم تحاول الوالدة طول هذه المدة أن ترى الجدة ولا الأطفال لأنها علمت بسخطهم ، ولكنها ترى شقيقتها أحياناً ومنها تتناثر الأخبار عن موقفها فى الحياة . وكان الابن الأكبر لها يزور أحياناً جدته وهو على علاقة وثيقة بوالدته وزوجها . وفى غير ذلك لم تحاول الجدة إصلاح الأمور بل كل ما عملته هو اتخاذ كل وسيلة لراحة كمال وراحة أخته . فتحيط كمالا بالعناية الشديدة وهو يجد من وسائل الراحة والرخاء ما لم يجده فى داره . وكان يحلو للجدة أن تعامله معاملة الرجل فتذكر له أنه رجلها ، وأن عليه تعتمد فى مستقبل الحياة . وتصف

له ما تنتظره له من حياة سعيدة وتفتح بحديثها العذب وأمانيها وآمالها آفاقاً واسعة . وقد بلغ كمال أول مرحلة فى دراسته الثانوية وهو من أصغر زملائه فى المدرسة .

فكانت الجدة تحدثه عن دروسه وعن أساتذته ، وتستمع إليه فى حنو ظاهر ، وتسأله عن الكتب التى يقرؤها ، وتظهر دهشة حين يلخص لها بعض القصص التى قرأها باللغة الإنجليزية . ويحلو له أحياناً أن يتلو معها بعض كتب الأدب العربى المحتوية على قصص أدبية أو تاريخية فيجد فيها خير مستمع . ولم تكن الجدة بجاهلة للقراءة ، وإنما انتابها فى السنوات الأخيرة تعب فى نظرها . لذلك ابتعدت عن القراءة والكتابة وصار اعتمادها على ما يتلوه عليها كمال فيما يقضيان سهرات لطيفة هادئة فى الدار .

وكانت تدلل كمالا بكل وسائل التدليل . وعادت إلى الدار الحلوى والفطائر المختارة التى يذكرها وهو طفل . ولم يعد كمال كثير الاختلاط بالزملاء فى خارج البيت بل يقضى أكثر سهراته فى المنزل فى القراءة . ولم يكن ذلك عصر انتشار السينما فى القاهرة بل الواقع أنه لم تكن توجد فى القاهرة غير دار واحدة للسينما أو دارين ويغشاهما جمهور أكثره من الأوربيين . ولكن الجدة التى تسبق إلى كل ما هو حديث ، تأخذه إلى السينما

حيث يندهش بصفة خاصة لذلك المشهد الذى هو أعجوبة الأعاجيب فى ذلك الوقت ، حين يظهر على الشاشة قطار قادم من بعيد وإذا به يتقدم ويقترب من الجمهور ويكبر أمام عينيه، حتى ليشعر المتفرجون أن القطار سيدهمهم ، فتخرج من أفواههم صيحة ذعر ودهشة .

وكانت الآلة الحاكية من أكبر وسائل التسلية فى الدار . وأخذت الجدة تذهب به إلى حانوت الأسطوانات وتطلب منه أن يختار ما يعجبه ، ولم ينس إعجابه بذلك الصديق لأخيه الذى تعلم العزف على الكمنجة فى أثناء دراسته بسويسرا ، فأخذ يختار قطعاً من الموسيقى الأوربية ، والجدة توافقه على ذلك . ولكنها تشير بشراء بعض البشارف التركية أيضاً وتختارها ، ولا ريب فى أنها تفضلها على الموسيقى الأوربية .

وفى ذات مرة تحادثا عن الاختلاف بين النوعين من الموسيقى ، وأخذت الجدة تصف وتطنب فى محاسن الموسيقى التركية ، وما يمكن سماعه منها فى إستانبول . وتكلم هو عن إعجابه بالعزف على الكمنجة كما سمعه من هذا الصديق الذى تعلمه فى أوربا . وذكرها بما سمعاه فى دار الأوبرا ، فأبدت له أمنية فرح لها فرحاً عظيما إذ قالت له إنك صغير السن ، فلماذا لا تفكر بعد إتمامك القسم الأول من الدراسة الثانوية فى أن

تتخلف عن الدرس سنة، ونذهب معاً فنعيش هذه السنة فى إستانبول بصفة خاصة، وربما تنتقل بعد شهور إلى بلاد أخرى، ليكن ذلك ! وحينئذ تستطيع أمرين أن تتلقن مبادئ فى الموسيقى، وسأشترى لك كمنجة من هنالك، وهم قوم مغرمون بالفنون. والأمر الثاني أن تعرف اللغة التركية فقد حاولت تلقينك إياها، وأنت لا تظهر لها نشاطاً، ولكنى واثقة أنك سوف تحبها لو سمعت كيف يتكلمونها فى إستانبول، فهنالك تسمع لغة هى الموسيقى بعينها.

والواقع أن كمال لم يكن به ميل للغة الترك، على ما يظهره من نشاط فى تعلم اللغات الأوربية، ولا يشاطر الجدة تحمسها لبلاد الأتراك. ولكن فكرة السياحة لذاتها هزته هزاً. وهو يعلم حق العلم أن حديث الجدة بمثابة الوعد: وهو يعتمد على وعودها كل الاعتماد. كما عرف أنها ما أخلفت وعداً بل تتلمس رغباته دون وعد فتنفذها.

وكانت هذه الفكرة الجديدة موضوع الحديث الطويل فى بعض الليالى. فالجدة تصف له ما ينتظر أن يراه من مناظر، وما سوف يتمتع به من جمال الطبيعة، فتصف له منظر البحر من الباخرة حين لا يشهد غير الماء فى حركته الدائمة وأمواجه يتوجها الزبد الأبيض، وغير السماء تسبح فيها سفن من السحاب.

وتصف له لذة التطلع عند الاقتراب من الشاطئ ، وما له من تأثير فى نفس راكب السفينة ، حين ترسو هذه السفينة على أحد الموانى فى طريقها ، وهى تحدثه عن ميناء بيروت الصغير والجبل يحيط بالمدينة وتتكلم عن ميناء بيريه التى تبدو كقرية صغيرة . ولكنه إذا انتقل إلى أثينا على مسيرة نصف ساعة ، رأى تلك المدينة العجيبة بآثارها الفخمة من مجد الماضى البعيد . وتنتقل فى الحديث أحياناً إلى منظر طلوع الشمس وغروبها على صفحة المياه المتلاطمة ، وما له من تأثير فى نفس راكب السفينة الذى أتيح له الوقت والفرصة كى يتمع بهذه الألوان الطبيعية ، ثم تصف له مرور السفينة بالدردنيل وظهور تلك الأراضى الصفراء للجزر فى مدخله وجانبيه ، فإذا دخلت السفينة إلى بحر مرمرة اختفت الأرض . ولكن الركب لا يلبث أن يرى جزيرة برنكيو الخضراء ذات المشاهد البديعة ، وهى تبدو على مقربة منه ثم تقترب السفينة من مضيق البسفور . ويلوح القرن الذهبى وإذا مدينة إستانبول تبدو كأجمل صورة ، وتعلو على أى رسم رسمته يد فنان . فهى بلا ريب أجمل مدينة يراها المشاهد من السفينة . هذا رأى الجدة فيما رأت وهذا ما سمعته عمن شاهداً بلاد أكثر منها .

وكانت الجدة تتوسع فى هذا الحديث كلما رأت إقبال كمال

عليه . فتصف له الذهاب بالقوارب فى البسفور رائحة غادية ، تنقل الناس من الشاطئ الأوربى إلى الشاطئ الأسيوى ، حيث يكون الصيف نزهة للجميع ، يذهب الناس بالقوارب إلى الأحراش وعيون المياه المتفجر فى الجبال الخضراء ، ومياهها العذبة السائغة .

ويتأثر كمال بهذه الأوصاف فيطيل التفكير فيها ، حتى لتكاد ترتسم صورها أمام عينيه فإذا غلبه النعاس ، تراءت له هذه المناظر فى الأحلام .

كان هذا الحديث حافزاً له ، فأخذ يجتهد فى دروسه كى يتحقق هذا الوعد ، ويظفر برؤية هذه المناظر العجيبة ، التى سوف تزيد لذتها بصحبة جدته المحبوبة .

وكانت الجدة تحدثه أحياناً بل كثيراً فى أمر مستقبله ، وفى ذات مرة تكلمت إليه فى صراحة فقالت له إنى عازمة عزماً أكيداً على أنك بعد إتمام الدراسة الثانوية ، تتم تعليمك العالى بفرنسا . فأصحبك إلى باريس حيث نعيش سوياً هناك .

وطرب كمال لهذه الفكرة الجديدة وبلغ بها أمنية ماثلة فى خاطره . وغطت هذه الفكرة على الزيارة التى وعد بها لتركيا . وصار الأمل الجديد أكثر حافزاً له من الوعد الأول . وهو لا يشك لحظة فى أن الجدة ستحقق هذه الآراء . فهى ضنينة

بالوعود ولا تتكلم فى شأن تراه خطيراً كهذا الشأن ، إلا بعد أن تقلب الرأى على وجوهه .

وسألها ذات مرة هل رأيت باريس يا جدتى ؟ فقالت له لا كل ما رأيته من بلاد فرنسا هو مرسيليا ، إذ مررت بها ذات مرة فى أسفارى وهى مدينة تشبه الإسكندرية ، وإن اتسعت أكثر منها أضعافاً .

وسألها مرة أخرى وهل ستلبسين القبعة يا جدتى ؟ فقالت لا وإنما سأضع غطاء من الدنتلا السوداء كما يفعل العجائز من الأوربيين فى مدينة الإسكندرية .

وهكذا كانا يقضيان ليالى كثيرة فى هذا الحديث اللذيذ لدى الاثنين .

لا ريب فى أن فكرة التعلم فى فرنسا كان لها وقع هائل في نفسه . فقد تعلم من الكتب التى قرأها من الآداب الأوربية أن يحترم الفكر الأوربى . وأتاحت له تربيته الشىء الكثير من الحرية الفكرية ، ونشأ فى وسط يحترم الدين ولا يفرضه على أولاده ، فاحترام الدين لديه نوع من العقيدة النفسية التى ترتاح إليها النفس وتحث على الفضائل أكثر منها القيام بواجبات وفروض مرسومة. وهو بعد قد قرأ قسطاً من الكتب العربية الأدبية ، واستطاع أن يقارن بين ذلك الكنز القديم، وما فى

الكنوز الحديثة التى يخرجها الأدب الأوربى من فرق اكتسب نتيجة لمرور الزمن . وعلى ذلك طرب كثيراً إذ وجد أن الزمن سيواتيه؛ وأن يتاح له الاتصال المباشر بالثقافة الأوربية إذ يتعلم بالمدارس الأوربية ، ويستنشق عبير الجو الأوربى فى عاصمة من أكبر قواعد العلم فى أوربا .

وهكذا ناقش جدته فى حكمة قضاء سنة فى إستانبول مما يباعد بينه وبين الزمن الذى يذهبان فيه سوياً للعيش فى باريس. ولم يحاول أن يثنيها عن فكرتها وإنما حاول تعديلها ، وقبلت الجدة هذا التعديل ، وتم الاتفاق على أنهما يمضيان أشهر الصيف التالى لإتمامه القسم الأول من الدراسة الثانوية على ضفاف البسفور ، ويزيدان الأجازة شهرين بالاتفاق مع مدرسته ؛ ثم يعود ليتم دراسته ، وكان كمال واثقاً أن هذين الشهرين لا يحولان دون نجاحه فى آخر السنة وبذلك استطاعا أن يوفقا بين الفكرتين ، بما لا يفوت تنفيذهما

وتمر الأيام هكذا بين عمل ، وبين أحلام أوشكت أن تتحقق ، واغتبط كمال لها كل الاغتباط . والجدة مرتاحة إلى هذه الأحلام التى تريد تحقيقها لخير حفيدها المحبوب وحتى لقد نسى كمال فى غمار هذه الأحلام آلامه التى نشأت عن خيانة الوالده . بل لعله حمد لوالدته أن أقدمت على تلك الخيانة .

لأنه يشعر الآن باغتباطه بجدته وأنه صار ابناً لها . وهى تعامله كما تعامل ابنها وتسهر عل راحته وعلى مستقلبه . أما تلك الوالدة التى فضلت أحضان رجل غريب فلم ينتظر أن تفكر فى مستقبله. أو على الأقل إذا استعرض الماضى لم يجد فيه أنها تفكر فى مستقبله فحياته السابقة إلى جانبها حياة قلق دائم . والآن وهو يظن أنها وجدت استقراراً ، فلتكن لها حياتها إذن التى ارتضتها ولتكن له حياته تلك التى تبشر بمستقبل باسم .

وكان لا يسمع عن أخبارها إلا قليلا إذ لا تزال الجدة مغضبة من ابنتها . ولا يتصل بهذه الابنة إلا شقيقتاها فينقلان إلى الأم أنباء ابنتها . وهى أنباء تدل على أنها تعيش فى كنف زوجها الجديد حياة هادئة مستقرة . لا يمكن القول بأنها تنعم بالحياة ، أو أنها تشكو حظها ، لأن طبيعتها الكتومة تتغلب عليها ، فهى تقتصد فى الحديث عن زوجها لا سيما أنها تعلم أن الأسرة بأكملها لم تكن متحمسة لهذا الزواج . وهى بطبيعتها العنيدة ترى أن هذا الأمر من شأنها ، ولم تظهر عليها أية تغييرات فى مسلكها نحو الحياة فهى قد اتخذت الخطوة فلا تحب ولا يجمل بها أن تتراجع . والحقيقة أنه لم يكن سبيل للتراجع فى هذا الأمر بعد أن نفذته ولذلك قبلت أختاها هذا الوضع وأن لم تهضمه والدتها .

وكان كمال إذا ما جاءت سيرة والدته فى الحديث صمت ولم يتكلم مطلقاً ، ولا تنتظر الجدة منه أن يتكلم ، وهى لا تلبث أن تغير من الحديث لأنها حريصة كل الحرص ألا يتألم الصغير وربما غالت فى ذلك لأن مرور الزمن لم يترك من آثار الجرح إلا وخزاً ضعيفاً . يشعر به كمال بين حين وحين فهى بعد أمه ، وهو يحبها كثيراً . وهو إذ يسائل نفسه هل لا يزال يحبها يجد نفسه يجيب بالنفى فى شدة ، ولكن شعوراً أعمق منه يعيش فى جانب مظلم من أغوار نفسه يضحك منه ساخراً حين يجيب بالنفى .

وفى ذات يوم عاد من المدرسة فأرسلته جدته إلى دار خالته المتزوجة ، ليخبرها بأمر من الأمور . ولم تكن الخالة تتوقع زيارته . فعند ما دخل إلى ردهة الدار قيل له إن الخالة جالسة فى غرفة الضيوف ، فتردد فى الدخول ، ولكن خادماً عجوزاً فى الدار أخبرته بأن لا مانع من دخوله فليس هنالك غريب . وعلى ذلك دخل الغرفة فإذا به يرى منظراً لم يكن يتوقعه . فقد جلست والدته تتحدث إلى خالته وبعض الأهل من الأقارب والأنسباء . وفوجىء كمال بهذه المقابلة التى لم تكن منتظرة . وفوجئت الخالة والأهل كذلك ، وهن يعلمن ما بين الابن والأم من جفاء ، وكان الموقف صعباً فقد تردد كمال لحظة وهو ينظر

إلى والدته . وهى تنظر فى ترقب إليه بعينيها الخضراوين الحزينتين لترى ماذا يفعل ، ولم تتحرك من مكانها ولم تمتد يدها إلى ابنها . وشعر كمال بوخز أليم فى نفسه ثم وقع تحت تأثير هاتين العينين الحزينتين ، فإذا به يتقدم إلى والدته ، ويلقى بنفسه فى أحضانها وضمته إلى صدرها وأخذت فى تقبيله .

كانت هذه المفاجأة سبباً فى عودة الوالدة إلى حظيرة الأسرة ، تزورها وتتردد عليها مرة بعد مرة ، وحيناً بعد حين .

١٠

آمال

كان هذا الصيف آخر صيف يقضيه كمال على شاطئ الإسكندرية قبل الذهاب إلى ضفاف البسفور . وبدت له مدينة الإسكندرية أبدع مما كانت . ولعل ما يجيش فى صدره من آمال جعل للدنيا من حوله بريقاً غير الذى ألفه . فكان مغتبطاً بكل شيء مما حوله ؛ بالدار التى تسكنها جدته ، وبالمناظر التى تحيط بها حيث تموج الساحات بالناس ، وبالبحر وشاطئه الممتد حيث يمضى أهل لإسكندرية والوافدون عليها صباحهم ومساءهم ، متنزهين أمامه أو غائصين فى مياهه .

ولم يكن كمال يحسن السباحة فهو على أنه أمضى أوقاتاً كثيرة فى الإسكندرية ، كان كأهل المدن البعيدة عن البحر يخشى ماءه وأمواجه ، ولكنه مع ذلك يذهب كل صباح للاستحمام وتمضية ساعة وبعض الساعة فى الماء . ولم يلبث أن وجد أصدقاء من طلبة مدرسته يصاحبونه ويصحبهم وهكذا يمضون أوقاتاً سعيدة . وأحياناً يذهب بصحبة بعض أولاد سيدنا ممن هم فى مثل عمره ، وكانت الشواطئ عندئذ رملية لا

توجد عليها الحواجز التى أقيمت فيما بعد ولا يمتد أمامها الطريق الممهد الذى تقطعه السيارات ذاهبة جائية . وكانت العربات هى وسيلة التنقل وترام الإسكندرية هو وسيلة العامة .

ومن الطبيعى أن كمال كان يقيم مع خالته وأخته فضلا عن جدته . وأما والدته فلم تصحبهم إذ ظلت مقيمة مع زوجها بالقاهرة .

وقد صارت بعد أن تمت المقابلة بينها وبين كمال تتردد على منزل الجدة وتقابل كابنة للأسرة . لم توجه إليها الجدة تأنيباً ، ولم تحاول أن تثير ما مضى أو تغير من الحاضر ، وإنما الجدة تكتم فى نفسها جرحاً يصعب اندماله . أما الزوج فشعر بأن الأسرة لا ترغب فيه وأفهم ذلك وكان يود لو يتغلغل فى أعماق هذه الأسرة حتى يعد فرداً من أفرادها . ولكن زوجته أفهمته جيداً أنه من الخير ان يبتعد عن زيارة الجدة وبذلك ظلت علاقة الجدة به منقطعة .

ولم يكن من المنتظر أن يشعر كمال بنقص فى حياته إذا لم ير والدته . والحقيقة أنه على صفحه عنها شعر بأنها سببت له من الآلام ما سوف يترك فى فؤاده أثراً عميقاً . وكل ما هنالك أنه عاد إلى حبه لها وضم إلى تلك العاطفة عاطفة أخرى هى أقرب إلى الرثاء لحالها . وكان يرى أنها انزلقت فى طريق الخطيئة ،

ولم يخطر له مطلقاً أنها بريئة كما يفكر الناس : فأمام القانون ما عليها حرج فى الزواج وما عليها حرج فى أن تختار زوجاً بعد أن أمضت سنوات طوالا بلا عائل ؛ هكذا يرى الناس ولكن كمالا لا يمكن أن يرى هذا ولا الجدة أيضاً فهما يحكمان بحكم العاطفة . والجدة ذاتها لم تفكر مطلقاً فى الزواج بعد وفاة زوجها بل قامت على تربية بناتها . فشعورها المرهف لم يتصور كيف تقدم أم على الزواج وفى أحضانها أبناء أحق برعايتها ، وكيف تنبذ حب الأمومة وتملأ قلبها بحب رجل غريب .

ومع ذلك أدت عودة الأم لحظيرة الأسرة إلى اطراح التفكير فى هذا الموقف جانباً ، واطراحه بأكمله ، بحيث ابتعد كمال وجدته عن التفكير فيه كلما مرّ بخاطرهما ، ويطردانه كما يطرد المرء خاطر سوء .

ولم يكن فى الإسكندرية مجال كبير للخواطر السيئة . فللذة الفراغ والراحة والتنزه تتجدد فى كل يوم على شاطئ ذلك البحر المتغير المتلون الذى لا يثبت على حال . فهو ملائم كل الملاءمة لحياة الإنسان الذى يحب بطبيعته وتكوينه التغير من ساعة إلى ساعة .

ولمرحلة النمو لدى الشباب هذه الميزة : هى أن الحياة والمناظر فى نظر الغلام الذى يخرج من طفولته ليتصل بالصبا والرجولة

تتغير شهراً عن شهر وسنة عن سنة فهو يرى الأشياء فى السنة التى يعيش فيها على غير ما يراه فى السنة السابقة وعلى غير ما يراه فى سنته اللاحقة ، لأنه فى طور تحول قوى وسريع . والإسكندرية فى تلك السنة فى عينى كمال غير ما عرفها فى السنوات السابقة . فهو فى تلك السنوات كان خاضعاً لنوع من الرقابة ، إن لم يكن نوعاً مرهقاً ، إلا أنه على كل حال يحول بينه وبين أن يشعر بأنه المسيطر على حياته . وإن كان هذا الشعور فى ذاته غير نام فيه عندئذ . ولكنه فى هذه المرة أخذ يشعر بأن عليه أن يعتمد على نفسه ويدبر أموره . ولا ريب فى أن الجدة وطريقتها فى ملاطفته تبعث فيه هذا الشعور بالاعتماد على النفس . فهى تخاطبه على أنه رجلها الذى ستعتمد عليه فى المستقبل لا اعتماداً مادياً وإنما اعتماداً روحياً ؛ وتصف له أحياناً كيف ينتظر أن تراه بعد سنوات قصيرة إذ ينمو شاربه وإذ يقوم بعمل هام فى الحياة ، وهنالك تعرج على تعليمه فى أوربا وما يبثه هذا التعليم من اعتماد على النفس نتيجة للاختلاط بحياة قوم يأخذون حظهم من الحياة بأكمله فى جدهم وفى لهوهم . فاتساع الأفق يتبع هذا التعليم والاختلاط بالأمم الأخرى والوقوف على عادتها تقضى على التعصب الضيق فى الفكر .

وهكذا تسترسل الجدة فى هذا الحديث العذب على سمع

الصبي الناشئ . ومن العجيب أن يقال مثل هذا الحديث على لسان سيدة مصرية فى ذاك العهد ولكنه ليس عجيباً على الجدة التى هداها تفكيرها إلى التنقل والسياحة فى البلاد .

وكان بحر الإسكندرية يردد لكمال هذه الأقوال فى صوت الأمواج المتلاطمة أبداً على الشاطئ . فيقضى كمال الساعات الطويلة واقفاً أمام البحر متطلعاً إلى الأفق ، وهو يشهد تلك الأمواج آتية من بعيد بيضاء فى تحركها أشابت رأسها التجارب وهى تجرى نحو الشاطئ فى سرعة ، وكأنها تريد أن تتحدث إليه لتخبره أن أفق الحياة أمامه وأن الآمال البعيدة الباسمة ترتبط برحيله إلى ما وراء تلك الآفاق التى لا يبين ما وراءها . وتأتى الموجة تتبعها الموجة فى سرعة وكل منها كأنها حين تلتطم بالشاطئ لتتوارى وتنتهى فى أحضان هذا الشاطئ تسر إليه وتكرر حديث السفر وتقول له جئت من بلاد فيها الحياة الحقيقية ، فالحياة هنالك .

ومن الطبيعى أن يتأثر كمال بهذه المشاعر التى تملأ نفسه بعد حديث الجدة وبعد قراءاته العديدة . وهو إلى ذلك العهد لم يتعمق فى الآداب الأوربية ولكنه يختار كتبه بعناية . ولعله كان مدفوعاً إلى هذا الاختيار والتدقيق فيه بالرغبة فى الاقتصاد فإنه يعمل على ألا يكلف جدته إلا أقل ما يمكن ، وهى فى

شعورها واهتمامها به تعمل من جهتها على ألا يعوزه شيء. ولذلك يحاول كمال أن يكون جيبه دائماً مليئاً بالدراهم حتى إذا ما أرادت جدته أن تعطيه شيئاً منها ، أبدى لها أنه لا يزال معه الكثير من النقود . ومع ذلك لم تكن الجدة لتقتنع بقوله بل تسهر على ألا يكون فى حاجة إلى المال أبداً .

فى هذه الفترة من حياته ، وفى مدينة الإسكندرية ، توطد اتجاه الفتى مرة أخرى : إذ حدث أنه بينما كان يسير ذات مرة أمام شاطئ البحر على مقربة من محطة مواصلات الرمل إذ به يقابل زميلا له فى المدرسة ، وهذا الزميل من أسرة تركية . وكان صبياً متباعداً فى المدرسة لا يألف إلا القلائل من الزملاء ، واعتبره زملاؤه فى المدرسة متكبراً ، ولم يكونوا يحبونه كثيراً إذ يبدو أنه من طبقة غير طبقتهم . فملابسه معتنى بها يتبين أنها من قماش ثمين وابتعاده مما يزيد فى هذا الإحساس نحوه . ولكن كمال اقتنع بأن ابتعاده لا يصدر عن كبرياء وبذلك تقدم إليه مرة متحدثاً فوجده مثالا للأدب وحسن التربية والظرف ولم يكن عدم اختلاطه بالزملاء عن كبرياء بل هو نتيجة لطبيعة خجوله تلقت تربية خاصة جعلته يبتعد كثيراً عن عبث الصبية . وألف كمال منذ عرفه أن يتحدث إليه فى شأن الكتب التى يقرؤها من كتب الآداب الأوربية . فظهر له أن هذا

الصبى على علم كبير بهذه الكتب وبغيرها ، وعلى ذلك قامت بينهما ألفة وود فهما يتبادلان الكتب ويتبادلان الحديث عنها ، وعلم كمال منه أنه مغرم بالتصوير يمارسه فى البيت وأعار كمالا كتباً فى الفن فيها صور متقنة لأكابر المصورين الأوربيين مما هو محفوظ فى المتاحف الأوربية . وبدأ كمال من هذه الكتب يهتم لأمور لم تشغل خاطره من قبل فهو لم ير قبل هذه الصور متحفاً من متاحفها . إذ أن القاهرة كانت خالية منها عندئذ ورأى فى هذه الكتب جانباً آخر من حياة الأوربيين وكيف يسعون إلى المتع الرفيعة وكيف تشغل حياتهم .

قابل كمال صديقه يوسف هذا ووقفا أمام البحر نحو ساعة يتباحثان . ثم عند ما أراد كمال أن يفارق صديقه قال له يوسف يجب أن تزورنى فى منزلنا فإنى أقضى الصيف مع عمى الذى اتخذ بيتاً فى رمل الإسكندرية بشارع ستانلى باى . فوعد كمال وعداً غير أكيد . ولكن يوسف ألح عليه فى تلك الزيارة وأن تكون بعد ظهر الغد حيث يتناولان الشاى معاً . وأخبره أن عمه هذا متخرج حديثاً من كلية الحقوق ولكنه لا يرغب العمل فى المهن القانونية لأنه من هواة الموسيقى الأوربية . وهو يحسن العزف على البيانو . ولذلك فهو يعد نفسه للسفر إلى باريس والالتحاق بالمعهد الموسيقى هنالك ، إذا أمكن ، أو

يتلقى الموسيقى على أساتذة من كبار الموسيقيين غير أن ما منعه من السفر فى تلك السنة هو أنه يرغب فى تدبير أموره المالية قبل هذا السفر .

وكان هذا الوصف حافزاً لكمال فما تردد بعده فى قبول الدعوة ، بل حدث أكثر من ذلك كله أنه ظل بقية يومه وليلته يفكر فيها ويترقبها .

فلما جاءت الساعة المحددة أخذ كمال طريقه إلى الدار ووصل إليها . وهى دار كبيرة ذات حديقة بديعة تدل على الثراء والرخاء . ولم تكن ملكاً لفؤاد بك عم صديقه يوسف بل يؤجرها بأثاثها من أحد أثرياء الأوربيين وقد سافر صاحبها إلى أوربا .

ودخل كمال الدار وهو يشعر بالخجل ولكن هذا الخجل ما لبث أن زال فى سرعة ، لأن طريقة يوسف فى مقابلته بهدوئه المعهود وبعده عن التصنع جعله يشعر بأنه فى منزله . وكان العم شاباً طويل القامة أبيض اللون هادئ النفس فى صوته بحة خاصة بسيطاً فى مظهره . فهو يرتدى ثياباً بسيطة وقد تدلت خصلة من الشعر فوق جبينه ولكنه لم يتخذ مظهر رجال الفن بل غاية ما حاول تقليده هو أنه يتخذ رباط رقبة عريضاً أسود ، ولم يسع إلى تربية شعره كما يفعل غيره ، بل اكتفى بهذه الخصلة من الشعر التى تطول قليلا . وهو حليق اللحية والشارب .

وسأل فؤاد بك كمالا فى بساطة : هل هو مغرم بالموسيقى الأوربية وهل يزاول العزف على إحدى الآلات . فأجابه كمال فى بساطة أيضاً : أنه لا يستطيع أن يقول بأنه هاو لتلك الموسيقى وإنما القليل الذى سمعه منها أيقظت ذهنه ، وأن لها مكاناً فى نفسه ، وأنه يعتقد بما يراه من تفوق الأدب الأوربى ، أنها لا بد متفوقة على مثيلتها فى الشرق . وروى كيف سمع عازفاً على الكمنجة صديقاً لأخيه وكيف حضر إحدى المسرحيات الموسيقية . وكان الشاى قد جاء مصحوباً بالفطائر وشربه الثلاثة فدعاه فؤاد بك إلى التفرج على بعض الصور التى رسمها فى حجرة عمله وبعض الصور التى رسمها صديقه يوسف . وانتقلوا إلى غرفة العمل حيث شاهد كمال لأول مرة كيف يعمل المصورون . وكان اهتمامه بذلك أكثر من اهتمامه بالصور التى شاهدها . ومع ذلك أعرب كمال عن دهشته وارتياحه ، وكان مندهشاً ومرتاحاً حقاً .

وعادوا إلى مجلسهم وكان البيانو فى جانب من الغرفة وجلس إليه فؤاد بك وسأل ماذا تريدون أن أعزف ؟ ومن الطبيعى أن يهز كمال رأسه أما يوسف فاقترح على عمه أن يعزف ليلة من ليالى شوپان ، ولتكن الليلة التاسعة . وبدأ فؤاد بك فى العزف وبدأ ذلك اللحن الطويل الحالم الذى تبتدئ به تلك القطعة .

وانتقل كمال إلى عالم آخر ، عالم جديد لم يعهده من قبل ، فلما انتهى فؤاد بك من العزف . لم يكن لدى كمال ما يعبر به عن تأثره واغتباطه . فاكتفى بكلمة الشكر ولعلها أبلغ لدى فؤاد بك مما لو أزجى إليه الثناء .

وعاد فؤاد بك فوضع يديه على البيانو وقال سأعزف لكما قطعتى المحبوبة فهتف يوسف فى سرور « لاباسيوناتا » وعرف كمال أنه سوف يسمع قطعة خالدة لبتهوفن قرأ عنها ، ولكنه لم يتوقع سماعها هكذا قريباً . وكان يحلم باليوم الذى سوف يذهب فيه مع جدته إلى باريس ، فيتاح له سماع هذه القطع التى يقرأ عنها ، ولكن الفرصة تأتى على غير انتظار .

وبدأ فؤاد بك وأنامله تجرى على صفحة البيانو بمفاتيحها البيضاء والسوداء ، فتتأثر منه تلك النغمات التى تذهب فى الحزن أحياناً حتى تبلغ حد اليأس ، وتذهب فى الاحتجاج مرات أخرى حتى تبلغ حد الغضب . وبين ذاك وذاك توسلات وإقناع . وانتهت تلك القطعة كما ابتدأت دون أن يستطيع كمال أن يقدر إلى أى حد كان تأثره . غير أنه بانتهائها تنفس طويلا كالمريض الذى أعوزه الهواء . وكان فى أثناء عزفها منهباً للعواطف المختلفة التى يصورها ذلك الموسيقار بما لم يستطع أحد أن يصل إلى تصويرها .

وبعد ذلك جرى حديث طويل عن الموسيقى وعن المؤلفين الموسيقيين ، وأخذ فؤاد بك يختار قطعاً صغيرة لتمثل أقواله ، وكانت تلك أول مرة أحب فيها كمال البيانو. وبدا لديه تماماً تفوقه على الكمنجة واستقلاله عن آلات العزف الأخرى . فهو بمثابة الصورة التى ترسم بغير الألوان بل بمجرد التباين بين البياض والسواد .

وأقبل المساء فتأهب كمال للانصراف ، وهو يود ألا ينصرف من تلك الصحبة الطريفة . وأخبره فؤاد بك عند انصرافه أنه يخصص بعد ظهر السبت من كل أسبوع لمقابلة بعض الأصدقاء الهواة للموسيقى الأوربية ، ودعاه إلى أن يتردد فى غير كلفة على الدار فى تلك الأيام ليتاح له سماع بعض العازفين من الأصدقاء، وليتاح له سماع بعض القطع تعزفها الجماعات الموسيقية على الفونوغراف ، وقال إنهم أخذوا منذ بضعة أسابيع يسمعون سنفونيات بتهوفن وأنهم بلغوا الرابعة منها فإذا جاء فى يوم السبت القادم فإنه يسمع الخامسة وإذا والى الحضور فسيتاح له سماع التاسعة .

وألح عليه يوسف فى بساطة بأن يوالى الحضور فى تلك الأيام ووعد كمال بذلك ولم يكن كمال ليجد فرصة خيراً من هذه الفرصة . ولا أصدقاء خيراً من هؤلاء الصحاب .

وعاد كمال إلى دار جدته وهو فى حالة اغتباط عجيب ونشوة . وتحدث طويلا إلى جدته عما سمعه بعد ظهر يومه . وقد سرت الجدة لسروره وشجعته على أن يوالى التردد على تلك الأسرة فى يوم السبت وقالت له ضاحكة هلا يقبلوننى معكم ؟ فقال كمال جاداً : بلاشك أنهم يقدرون حضورك ويرحبون به ، وكان يعنى ما يقول ولم يفكر فى تحمسه أن هؤلاء الصحبة ربما لا يرحبون بوجود الجدة لا لشىء إلا لأنهم لم يألفوها . وإذا كانوا قد ألفوا كمال سريعاً فذلك لتحمسه لفكرتهم والتحمس للفكرة يزيل جميع الفوارق ويوطد الصداقة سريعاً .

فلما رأت جدته أنه يحدثها هكذا جاداً عادت تضحك وتقبله ، وتخبره بأن كل ما تريده هو أن يوالى الذهاب إلى تلك الجلسات التى لا شك فى أنها ممتعة . وأن يوالى فى مساء كل سبت رواية ما سمعه فى تلك الجلسات وتنوير ذهنها عن الموسيقى الأوربية . وعادت إلى ضحكها وهى تقول من يعلم ربما هويت الموسيقى الأوربية مثلك وإن كنت قد بلغت أرذل العمر . وحينئذ نستمتع بها معاً فى باريس .

ونبهت عبارة أرذل العمر كمالا ونظر إلى جدته محتجاً . والواقع أن الجدة لم تكن قد بلغت أرذل العمر كما تقول . ولم يزل كمال يرى ذلك الوجه المحبوب الذى ينم عن جمال كبير لم

تزل آثاره . ولكنه شاهد فى هذه المرة شيئاً من الشحوب فى وجه الجدة وترهلا فى جلد وجهها لم يكن قد انتبه إليه من قبل . كما أن العينين زال بريقهما شيئاً ما وغشيتهما غشاوة بسيطة. فهما تنظران من وراء حجاب رقيق ولعل تلك النظرة نتيجة لشكوى سمعها فى الأيام الأخيرة تتمتم بها الجدة لأحدى بناتها بأنها تشعر فى نظرها بشىء من التعب ، كما أنها فى تلك الأيام تشعر بأنها غير متمالكة لجميع قواها وإن كانت لا تشكو من مرض بذاته .

وأحس كمال بعطف شديد . وعادت ذاكرته إلى القاهرة وإلى تلك الأم التى هجرت أهلها وأبناءها فى سبيل معاشرة رجل غريب . وساءل نفسه هل جنت هذه الأم على الجدة كما جنت عليه ؟

١١

نهاية

تبعث الآمال فى النفس نشاطاً وهمة لا سيما فى نفوس الشباب ، وصارت الآمال العريضة التى ملأت نفس كمال حافزاً له على الاهتمام بدروسه عند بدء الدراسة بعد انتهاء الصيف فأقبل على هذه الدروس فى نشاط عجيب وأوشك أن يتحقق أمله الأول فى نهاية ذلك العام إذ يسافر فى سياحته مع جدته إلى إستامبول فيركب الباخرة الكبيرة لأول مرة فى حياته ويسير فى ذلك البحر العجيب الذى لا ينتهى من النظر إليه وهو يمضى الساعات أمامه فى الإسكندرية . وستتاح له الفرصة فى أن يرى بلاداً عدة فقد بلغه أن الباخرة ستمر على مدينة بيروت حيث يقضى ساعات صاعداً فى ذلك الجبل الأخضر إذ تمكث الباخرة على الأرجح نحو يوم . وسترسو الباخرة فى ميناء بيريه فيزور مدينة أتينا القديمة متوجة بالأكروپول . ثم تسافر بهما الباخرة إلى إستامبول ليشهد محاسنها . وهذه الرحلة بداية جميلة لما ينتظره بعد سنتين من آمال واسعة وحياة رغيدة فى بلاد فرنسا .

فكيف لا يعمل وكيف لا يجتهد ؟ إن الحياة باسمة أمامه بفضل هذه الجدة التى ترعاه وتفكر فيه وتفكر له . وظهرت نتائج هذا النشاط فى سرعة لأساتذته فابتدأوا يشعرون بأنه من خير تلاميذهم وأخذوا يعطفون عليه ويرعونه رعاية خاصة. فإن الأساتذة يغتبطون إذا رأوا ثمار دروسهم يتلقفها طالب فى سرعة وذكاء ويظنون ذلك نتيجة براعتهم فى الدروس . ولم يفكروا مطلقاً أن ذلك من تأثير خارج عن إرادتهم بعيد عن مجهوداتهم هو تأثير الدار ، بدلا من أن يكون تأثير المدرسة .

وأخذت الجدة تلاحظ هذا الاهتمام من كمال وتغتبط له . ومن الطبيعى أنها تعتقد فى ذكاء كمال وتبالغ فى ذلك . والحقيقة أن كمالا لم يكن غبياً ولم يكن خالياً من الذكاء وإنما ذكاؤه رهن بشعور عاطفى ، فهو إذا وجد تشجيعاً صار من أنشط الناس فى دروسهم وتظهر فى الحال عليه علائم تدل على نجابة . أما إذا لم يجد تشجيعاً أو كره أستاذه فإن هذه النار تخبو سريعاً ويتأخر فى فهمه لدروس هذا الأستاذ الكريه ولكن حياته فى تلك الفترة لم تكن متعلقة بالأساتذة فهو مغتبط لأمر داخلى فى نفسه أمر بعيد عما ألفه أقرانه وهو يكتم هذا الأمر فى طيات نفسه ولا يتحدث فيه لأحد ، ولكن هذا الأمر يشع فى نفسه ضياء فينيرها ، ولذلك صار فى تلك الأشهر لا يفرق بين المدرس

الذى ينجذب إليه والذى لا يحبه فهو يقبل على دروس الجميع والجميع عنه راضون .

كان كمال فى تلك الفترة من حياته يفضل الدار كثيراً . فهو بمجرد عودته من دروسه يلزم الدار ولا يخرج إلا نادراً حتى فى مساء يوم الخميس . ولاحظت جدته ذلك فصارت تدعوه للخروج فلا يستجيب لها ، والجدة فى ذلك الحين لا تخرج كثيراً كما كان شأنها من قبل . فإنها بدأت تشعر شيئاً ما بوطأة الزمن . وتشعر أحياناً بشىء من التعب صارت معه لا تحب الخروج بحفيدها . وهى فى مساء يوم الخميس بصفة خاصة تكرر عليه القول بأنه يخرج ليتنزه بضع ساعات .

وجد كمال أن خير سبيل لشغل وقته فى غير ساعات استذكار دروسه هو الإقبال على القراءة . وهو يشترى كتباً عديدة بعضها يبحث فى موضوعات أدبية كعادته . ولكن البعض الآخر يدور حول البلاد التى ينتظر أن يزورها . فاشترى دليلا لرحلة فى البحر المتوسط واشترى دليلا لتركيا وبلاد اليونان وعاد فاشترى كتباً فى تاريخ الأتراك وفى تاريخ اليونان القديم واشترى كتباً فى الآثار وأخرى فى الفنون وهكذا يعيش فى رحلته القادمة ويضاعف الاستمتاع بها أولا بالقراءة قبل أن يستمتع بها بالسفر .

واشترى كتباً عن فرنسا وتاريخها وآثارها ومحاسنها القديمة والحديثة . وهو واثق كل الثقة بأن آماله ستتحقق فهو لا يشك مطلقاً فى قول من أقوال جدته .

أما والدته فكانت فى ذلك الحين بعيدة عن حياته وقريبة . فهى قريبة لأنها تتردد على دار جدته بين وقت وآخر ولكنها تتردد كالغريب . تقضى بعد ظهر اليوم فى تلك الدار ولكنها لا تبقى كثيراً بعد الساعة الثامنة مساء ولا تبقى إلا نادراً للعشاء وكانت تهتم لأمور كمال فهى تشرف على ثيابه وتنظمها كلما حضرت إلى الدار . ومن الطبيعى أن الجدة تسمح لها بذلك فهى بعد ابنتها ، وهى بعد أم لحفيدها، ومن حق الأم أن ترعى أمور ابنها ، ولو كان يعيش فى غير دارها . ولكن كمال كان لا يشعر فى الحقيقة أنه ينتمى لهذه الأم فكل قلبه لجدته . وهو يعامل أمه بالاحترام الواجب للأم ولكنه لا يقدم لها قلبه . ولو أن الجدة تتخذ لنفسها دوراً ثانوياً عند حضور الأم . ولعل ذلك لأنها تقدر عاطفة الأمومة ، أو لعلها تحب أن تبعد عن الأم الفكرة فى أن الجدة سلبتها قلب ابنها .

واستطاعت الأم أن تسترضى الجدة شيئاً ما إلى درجة أن جاء زوجها معها فى زيارة للجدة بضع مرات ، ولكنها مرات قليلة . وهو يأتى فى تلك المرات مصاحباً زوجته ليوصلها إلى دار

الجدة . أو يأتي بعد أن تمضي الأم وقتاً طويلا فى منزل والدتها لكي يصطحبها إلى داره . والجميع يعاملونه معاملة لائقة ولكنها خالية من الحماسة . واستطاعوا أن يفهموه أنهم لا يمكن أن يعتبروه فرداً من أفراد الأسرة . وأنهم ينظرون إليه نظرة اللص الذى سرق منهم ابنتهم . ولكن شعور كمال نحو هذا السيد كان غريباً : فهو لم يكن يحنق عليه وإن كان لا يحبه . وقد عدل عن اتهام والدته بالخيانة عند ما زالت سورة غضبه وحدة ألمه . وصار يعتبرها نفساً ضالة أقدمت على هذا الضلال لتهرب من حالتها النفسية التى اعترتها من قبل .

وأخذ الآن يشعر شعوراً عميقاً لا يمكن تعليله بأن الأم لم تكن سعيدة بزواجها . وهو إذا ساءل نفسه عن السبب فى هذا الشعور وعن المبرر له لم يجد سبباً ولا مبرراً : ولكنه أقنع نفسه بهذا الأمر وحاول تعليله إذ أنه يرى على والدته سهوماً أكثر مما كان من طبيعتها . وكان إذا صادف أن وقعت عيناه على تلك العينين الخضراوين ، خيل إليه أن عليهما سحابة حزن وكآبة تحاول النفس أن تخفيهما . وهو يعلم أن والدته دائماً كتومة ولكنه يرى هدوءها الآن أكثر مما ألفه . وهى تبتعد عن الحديث عن حياتها الزوجية وقد يكون ذلك اعتقاداً منها أن الحديث الذى يتردد فيه اسم زوجها ليس محبوباً لدى السامعين . وقد يكون

ذلك أيضاً لأن الحياة الزوجية لم تحقق ما تصبو إليه .

حدث ذات مرة أن كانت الخالة المتزوجة فى زيارة للأسرة ، ولم يكن كمال جالساً مع الجدة والخالة وهما يتحادثان . بل كان جالسا فى غرفة مجاورة يقرأ فى كتاب استغرق كل اهتمامه . ولكن الذهن يتعب أحياناً من القراءة . ويحب أن يلعب بصاحبه قليلا فيشرد إلى مكان آخر غير تلك الحروف التى تبدو فى الكتاب . وهكذا شرد ذهن كمال قليلا ، فإذا هو ينتبه فجأة إلى الحديث الذى يجرى فى الغرفة المجاورة . وإذا به يسمع الخالة تقول إن هذا الرجل ليس مخلصاً لأختى ، فقد شاهدته سائراً مع فتاة وهو يتحدث إليها فى شغف ظاهر للعيان حتى إنه لم يشعر بمرورى إلى جانبه . وارتسمت هذه العبارة فى ذهن كمال وزادته يقيناً فى أن والدته تعسة فى زواجها. والآن بهذه العبارة عرف السبب وشعر بنوع من الشفقة .ولكنه لم يلبث أن انقلب شعوره إلى نوع من الارتياح . فهذا هو الانتقام لما رأى فيه خطيئة .

كان هذا انتقاماً للخطيئة : فهذا الزوج المسجى فى رمسه شملها بكل عطف . وهى تفضل عليه رجلا آخر ، وتختار شاباً من وسط أقل منها شأناً ، تنظر إليه أسرتها على أنه رجل أفاق غرر بابنتهم ، وأن هذه الابنة تكبره سناً حتى ليكاد يكون

فى عمر ابنها الأكبر . والآن تفتحت عيناها ، أو هكذا خيل لكمال ، ولكنها فى تكتمها وكبريائها لا تريد أن تعترف بالحقيقة

وزاده يقيناً وإمعاناً فى هذا الرأى أن والدته تتردد على دار أمها كثيراً فى الأيام الأخيرة . وأخذ كمال يفسر ذلك بالفكرة التى تسلطت عليه حتى صارت عقيدة ، بأنها تهرب من جحيم دار زوجها . أجل إنه لم يسمع قط شكاية من والدته ولكنه رجح ألا تشكو أمامه . وقد تكون أسرت لجدته بشىء مما بها ، وإن كانت الجدة لم تظهر أمامه ما يدل على شىء . والراجح أن خياله يذهب بعيداً ويغلو فى هذه الناحية . وكانت أمانيه وآماله فى فشل هذا الزواج هى التى تجسم هذا الخاطر حتى ليصير حقيقة فى ذهنه . ولم يفكر قط بأن والدته سعيدة مع هذا الزوج الشاب . وأن سعادتها زادت إذ استطاعت أن ترجع إلى أحضان أسرتها .

وهنالك سبب آخر يبعث على تردد والدته كثيراً على المنزل ، فإن شتاء تلك السنة كان بارداً بنوع خاص . وأصيبت الجدة بسببه بنوع من الأمراض التى تنتجها برودة الجو وعدم الاحتياط لا سيما إذا كان الجسم ضعيفاً . واضطرت الجدة إلى ملازمة الفراش وأتت الأسرة بالطبيب فوصف لها الدواء ومنعها من الأكل ، فهزل جسمها أكثر مما كان . ومن الطبيعى أن تتردد

والدته لخدمتها فى كل يوم تقريباً . وكمال يجلس إلى جوار سريرها ساعات طويلة وهو يحادثها أحياناً أو لا يحادثها إذا رأى منها رغبة فى الإغفاء . ويذاكر بعض دروسه أو يقرأ بعض الكتب التى يطلع عليها إلى جوار السرير وكانت إذا رنت إليه حاول تقبيل يدها أو وجنتها أحياناً فتنتعش نفسها وتتبين الغبطة على وجهها .

ولم يقل الطبيب أن المرض خطير ولكن الجدة ضعيفة ولذلك طال مرضها بعض الشىء . وهى على كل حال تجد من عناية ابنتها والدة كمال وخالته كل ما يمكن أن تجده ، فمن طبيعة والدة كمال أنها دقيقة تتبع تعليمات الطبيب حرفياً ، وذلك مما يشجع على زوال المرض . وكان كلام الطبيب مطمئناً فالهزال الذى زاد شأناً أنما هو نتيجة ضعف الجدة . وقريباً ستبرأ من مرضها ثم تقضى فترة النقاهة حيث تسترد قواها شيئاً فشيئاً بعد زوال المرض .

وكان كمال يفكر فى أن الرحلة إلى إستامبول ستعود بالجدة إلى سابق صحتها . فهذا المرض الذى طال وإن لم يكن خطيراً لا يقضى على آثاره كل القضاء إلا تغيير الجو . هكذا قال الطبيب فى بعض حديثه فإن الطبيب يعرف الأسرة ويعرف الجدة ويهتم لها كل الاهتمام . ومع ذلك نصح الطبيب بأن لا

تبارح الجدة فراشها وأن يحال بينها وبين أى مجهود . واتبعت الأسرة مشورته . وكان كمال إذا ما حاولت الجدة أن تبارح فراشها يسألها فى رقة ألا تفعل خضوعاً لأمر الطبيب ، فتستسلم فى الحال لرغبته وإن احتجت فى ضعف بأنها قد ملت الفراش . فيبتدئ كمال فى حديث يقنعها به بأن هى إلا بضعة أيام حتى يزول المرض وحينئذ تستطيع أن تعود سيرتها الأولى وتترك هذا الفراش البغيض . وأحياناً تسائله الجدة محتجة أى مرض هذا الذى يقول الطبيب إنه برد اشتد قليلا ثم يدعوها إلى ملازمة الفراش . فيتوسل إليها كمال يرجوها قائلا : هونى عليك يا جدتى فإن الطبيب إنما يريد زوال المرض فى أقل وقت مستطاع ولا بأس عليك من إطاعته . وهى تقول له أحياناً أننى لا أمل الفراش وأنت إلى جانبى ، وإنما أمله فى الساعات التى تذهب فيها إلى المدرسة ؛ فيقول لها فى حماسة إذن أترك المدرسة وأظل إلى جانبك ؛ فترد عليه الجدة إنما كل آمالى معقودة على المدرسة ، وإتمامك لدروسك ، فتكون فى المستقبل القريب رجلى فى الأسرة .

وفى ذات صباح استيقظ كمال من نومه مبكراً كعادته . وأرتدى ثيابه للذهاب إلى المدرسة ، ثم تناول فطوره . وبعد ذلك دخل غرفة الجدة ليحييها تحية الصباح إذا كانت قد استيقظت

ووجدها فعلا مستيقظة . ووجدها جالسة فى فراشها، وخالته تمشط شعرها . ونظرت إليه مبتسمة ، وكأن المرض قد زال منها فجأة . ولأول مرة تألم كمال من شحوب وجهها وما وصلت إليه من هزال . فقد بدا وجهها على حقيقته فى هذا الصباح وريع كمال لذلك الوجه الأبيض كالشمع . وتلك الغضون المرتسمة من أثر الهزال ولكن العينين الصافيتين تنظران إليه والفم يبتسم له . وطلبت إليه الجدة أن يقترب منها فاحتضنها وقبلها وقبلته ثم سألته : هل وقت الذهاب إلى المدرسة قد حان ؟ وهل يستطيع أن يجلس إلى جانبها قليلا ؟ فأجاب فى الحال بأن هنالك متسعاً من الوقت وأنه يستطيع الجلوس . وجلس إلى جانبها وأخذت تتحدث إليه أحاديث الحب التى لا تنتهى كما كانت تفعل لا سيما وهو طفل صغير حين يجلس إلى جانبها . وقد وضعت يدها حول خصره تضغط عليه فى ضعف كى تضمه إلى صدرها . فيلصق صدره إليها دون أن يكلفها عناء ويجيب على عباراتها بما يقابلها من إظهار حبه وتعلقه بها . وظلا هكذا بعض الوقت ثم قالت له : لتذهب الآن إلى مدرستك ومدت يدها تحت الوسادة ونفحته بخمسين قرشاً فأبى أن يأخذ النقود وأخرج لها من جيبه كمية منها ليؤكد عدم حاجته فأصرت

واضطر لكى لا يرهقها إلى أن يأخذ هذه النقود .

خرج كمال إلى مدرسته ومنظر الجدة المريضة بوجهها الشاحب ماثل أمام عينيه . ونفسه مليئة بالشفقة والعطف عليها ، ولم يشعر فى ذلك اليوم إلا بهم جاثم ، وظل سحابة يومه متألماً تمر به ساعات الدرس وهو على غير عادته غير منتبه لها ، ويبدو له أساتذته وزملاءه كالأشباح . وإنما الحقيقة هى فى ذلك الوجه الشاحب وتلك العينين اللتين تنظران إليه وهما تسيلان رقة وعطفاً .

وإذا انتهى اليوم الدراسى قصد إلى دار جدته وهو لا يزال يشعر بألم وانقباض شديدين . ووصل المنزل وصعد الدرج وقرع الباب ، ولاحظ فيه نوعاً من الضجة وكأن أناساً كثيرين وفدوا عليه . وترجح لديه أن خالته المتزوجة جاءت . وبعد برهة ، بدت كأنها ساعات ، فتح الباب وظهرت والدته . وكانت عيناها مليئتين بدموع غزيرة وقالت له : انزل الآن مع زوج خالتك واذهب إلى دار الخالة . فإنك سوف تبيت عندها الليلة . وخرج زوج الخالة من ورائها وأمسك بيده وقال له : تعال معى الآن يا ولدى .

لم يقل له أحد فى تلك اللحظة شيئاً أكثر من ذلك . ونزل
الدرج وهو لا يكاد يرى موضع قدمه . ولكنه أحس بكل شىء
وعرف دون أن يقول له أحد شيئاً ، أن جدته قد ماتت .